liilas . com
مجلة
روايات احلام
hebawebas

في عتمة الذكريات

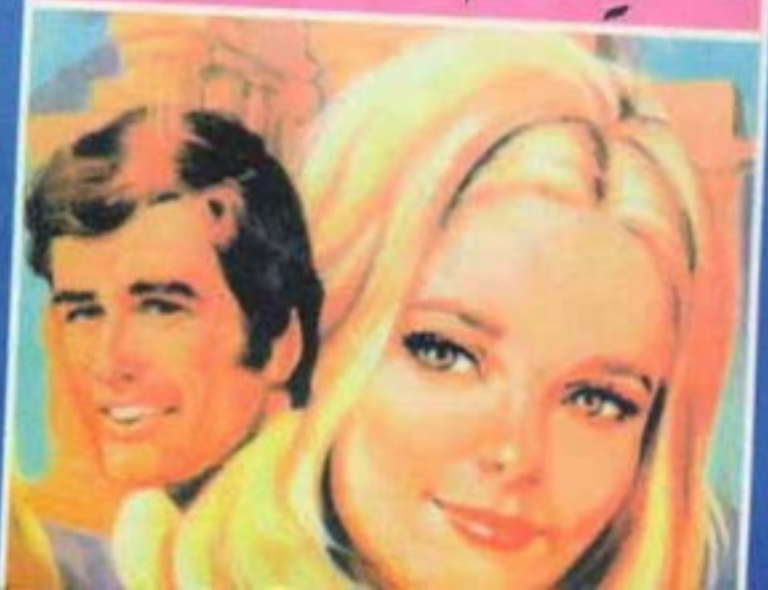

www.liilas.com

liilas . com
مجلة روايات احلام

في عتمة الذكريات

بعد موت زوجها فتحت سالي ذراعيها للأحزان وعاشت في جحيمها الخاص لا يؤنس وحدتها سوى الذكريات، حتى أتى سيد القصر وعرض عليها الزواج بهدف إنجاب وريث له.

قدم لها غافن هنتلي فرصة لتعيش مرة أخرى، ولتجرب وجهاً آخر من وجوه الحياة بدل أن تموت ميتة بطيئة.

لكن سالي لم تستطع أن تتحمل فكرة العيش مع رجل يرهبها إلى هذا الحد، رجل يحمل صفات أسلافه المتوحشين ويملك أفكاراً مخيفة عن الحب فقالت له: أفضّل الموت على أن أعيش معك..

hebawebas

لبنان ٥٠٠٠ ل.ل. | سوريا ٤٥ ل.س. | الأردن ١ د. | البحرين ٦٠٠ ف. | تونس ١٫٥ د. | ليبيا
الكويت ٥٠٠ ف. | السعودية ٧ ر. | عمان ٦٠٠ ب. | اليمن
السودان
العراق

١ ـ دعوة الى العشاء

من بين الغيوم المنخفضة كانت أشعة الشمس الضعيفة تتسلل إلى مرجة الخلنج البعيدة، قاتمة اللون، كئيبة المنظر أمام حدود سماء «نورثمبرابن» المعتمة. كُتب تاريخ منطقة «بوردر» الحدودية بدماء سُفكت بوحشية منذ زمن طويل حين كان الرجال قساة القلوب يشركون أنفسهم بحرب بدائية تميزت بالمآثر البطولية، الشجاعة اليائسة، بنهجمهم على جيرانهم وكانت النتائج دماراً وخراباً. هكذا بنيت الحصون لأجل الدفاع.. وكان أحدها حصن «وارندايك».. المنتصب وسط أراضٍ خصبة من المراعي التي لا نهاية لها وغابة كثيفة يتدفق من خلالها نهر، تغذيه عدد كبير من السواقي المتدفقة من الجبال.

يملك «وارندايك كاسيل» الآن غافن هنتلي، سليل «جون دوفينتون» المعروف في أيامه باسم «الرهيب» نظراً لقساوته على عبيده وأتباعه.. ولم يكتف غافن هنتلي بهذه الصفات فحسب، بل كان يحمل كذلك سمات ورثها عن الإغريق الوثنيين، فجده لأمه كان المليونير نيكولاس ليانوس، مالك السفن القاطن في جزيرة (كوس) اليونانية.

غافن هنتلي هو شاب عازب في الخامسة والثلاثين من العمر.. شرس الطباع كواحد من أسلافه المحاربين، متوحش، كما كان يبدو لسالي والينغ، التي كان زوجها يعمل في مزرعته.. كان يسير قدماً ووجهه إلى الريح، عيناه شديدتا السواد ضيقتان، لكنهما شديدتا النفاذ. شعره الكثيف الخشن ذا لون أسود، يندفع إلى الوراء فوق جبين مخطط منكبر. قسماته واضحة الخشونة، تتميز بوجنتين بارزتين تجعله شبيهاً بالصقر. هكذا كان غافن هنتلي متأصلاً بصفات أجداده، رجل يعيش في غير زمانه.

ـ كان يجب أن يعيش في زمن يحمل فيه السوط على أتباعه والهراوة

على زوجته.

قال هيكتور بولتون هذا لسالي حين كانا يقفان معاً قرب باب كوخه، يراقبان اللورد المتعجرف يمرّ بهما في طريقه إلى أحد الحقول الذي ترعى فيه مواشيه. وأكمل:

- من الأفضل أنه لم يتزوج.. لكان حوّل حياة امرأته إلى جحيم!

لحقت عينا سالي الرماديتان برب عمل زوجها المتوفي.. وردت:

- ومع ذلك.. ألا تظنه يرغب في وريث؟ ماذا سيحل بكل أملاكه بعد موته؟

- أقاربه البريطانيون سيرثونه.. كما سيرثون ثروة جده.

فكرت سالي: إنه أمر مؤسف! لكن كان عليها أن توافق رأي هيكتور بأن اللورد سيكون زوجاً قاسياً ظالماً.. ومن الأفضل أنه لم يتزوج.. فهو لن يحب امرأة ويرعاها.. هاتين اليدين السمراوين الطويلتين، لا يمكنهما المداعبة بلطف.. ولا يمكن لهذا الفم القاسي أن يسعى لتقبيل امرأة بحنان وحب.

كانت سالي تعرف كل هذا.. تعرفه من خلال تجربتها بزواج لم يدم أكثر من ثلاث سنوات مع كولن الذي التقته بعد سنة من وفاة ذويها خلال أسبوع الواحد تلو الآخر إثر حادث سيارة مروع.

كانت ثلاث سنوات من النعيم.. ثم مات كولن أيضاً ولقد مرت سنة ونصف على وفاته.

وقفت أمام نافذة البيت الريفي الذي أعطاه لهما خافن هنتلي عندما جاء كولن ليعمل لديه عقب زواجهما.. وسمح لها بالإقامة فيه بعد وفاة زوجها، بين عدة بيوت مماثلة يعيش فيها عماله وموظفيه.. وحدقت بالمنظر الكئيب المنتشر في أيام كانون الثاني. أخذت تفكر كيف يتناسب مع مزاجها! لون قاتم، أرض تكاد تمزقها الريح، وأشجار عارية من أوراقها، سماء رمادية حزينة، ورذاذ الثلج يتكون في غيومها.

انطلقت تنهيدة عميقة من شفتي سالي.. هل ستعيش الشتاء دائماً في

قلبها؟ أيمكن أن يزور الربيع حياتها من جديد؟ لكنها لم تستطع تصور نفسها سعيدة، خالية من الهموم كما كانت قبل وفاة ذويها.. فزواجها كان نعمة من السماء، رغم أنها في البداية، كان الحزن يلازمها.. وساعدها كولن على تجاوزه، وتمكنت في آخر سنة من زواجهما من استعادة قدرتها على الضحك.. بعد انخفاض حدة الألم الذي سببته لها وفاة والديها لخسارتهما كانت من أصعب الأمور التي واجهتها. ولكن خسارة زوجها جعلت حياتها مستحيلة. أحياناً كانت الأحزان تثقل قلبها إلى درجة التمزق، وكانت في تلك اللحظات الرهيبة تحس بالخوف على مستقبلها.. فالشعور بالوحدة جعلها تعيش في فراغ أسود لا ينتهي وفي رتين من الوجود المخيف الذي لا هروب منه.

كانت قد عادت إلى عملها، وهذا ما ساعدها قليلاً.. وأنقذها من الانهيار الجسدي والنفسي. لكن، يبقى أمامها الأمسيات الموحشة المخيفة، والليالي الطويلة الفارغة.. ونهايات الأسبوع.. وأيام العطل..

توقفت عن التحديق بالمنظر في الخارج، وأخذت تجيل النظر في غرفتها، تتفحص محتوياتها.. هذا البساط الأحمر السميك الذي أمضيا وقتاً طويلاً في التفكير بما سيناسبه من أثاث، الستائر الفرنسية القديمة الطراز، اللوحة على الجدار الأبيض فوق المدفأة والتي تمثل منظر في «بانكوك» مع إطار تايلندي حريري، اشتريناه من دكان بيع أشياء عتيقة الأثاث كان عصرياً، فهما لا يستطيعان تحمل شراء الانتيكات، لكن والدة كولن، ابتاعت لهما خزانة السندبان الرائعة، والصوفا الخشبية الفيكتورية الطراز.

إنه بيت دافئ، صغير، كان متناسباً جداً مع جو الحب والرعاية، سكنا فيه بعد شهر عسلهما.. كل منهما ساهم في شيء مميز يدل على شخصيته الخاصة. النتيجة كانت التناغم، فنظرتهما إلى «البيت» هي في عدم وجود زينة مبالغ فيها أو غير مألوفة.. مجرد أشياء جميلة ناعمة، كما قال كولن، أشياء نعتاد عليها معاً ونحبها.

لكنه الآن ميت.

وبالنسبة لها فكرة الحب كانت عاطفة عاشتها.. فلا أحد قبل كولن، ولن يكون هناك أحد بعده.

تحركت عيناها إلى باب مفتوح، باتجاه المطبخ الصغير المتألق أمامها. وعبر باب آخر كان الممر الذي يقود إلى غرفتي نوم، وحمام. منزل صغير، ككل بيوت العمال في هذه الأملاك..

مدفوعة بقوة لم تستطع السيطرة عليها، دخلت سالي إلى غرفة النوم، تتحرك ببطء، نحو الصورة فوق الخزانة الصغيرة قرب سريرها.. هذا الوجه الحبيب.. الحبيب.

عينان زرقاوان مشعتان، وقسمات صافية.. ليست قوية ربما، لكنها وسيمة.. أجل.. كان وسيماً لدرجة غير عادية. وكانت تحس أنها أكثر الشابات حظاً لجذبها رجلاً مثل كولن، الذي كان يمكنه أن يختار فتاة أكثر جمالاً منها.. لكنه كان يفضل الشعر الذهبي، كما قال، ولسالي شعر ذهبي شاحب براق، وفي بعض الأحيان، وأمام أنوار محددة، يبدو كالفضة، مع خيوط ذهبية غنية.. وجهها، كمثل استدارة القلب، كان يرضي حبيبها المتشوق، كما كانت عيناها مؤثرتان تماماً.

قال لها بإعجاب، في أول لقاء:

ـ ما هذه الرموش! أهي حقيقية؟ لا.. لا يمكن أن تكون!

وفي خلال أسبوع عانقها، وقال لها إن عناقها ألذ ما ذاقه في حياته كلها. ولكنه الآن.. ميت.

كان يبدو هذا لها مستحيلاً، في بعض الأحيان تقاوم التصديق بقوة، تقول لنفسها إن هذا مجرد حلم... كابوس رهيب ستستيقظ منه.. لتجد زوجها إلى جانبها، وجهه الصبياني مسترخ في نوم عميق.

قالت لها لورين إحدى جاراتها المتزوجات والتي تعيش في أحد البيوت القريبة، بطريقة عملية واضحة:

ـ كان يجب أن تتغلبي على شعورك بعد هذا الوقت سالي.. لا

يمكنك العيش مع ميت.

أجفلت سالي عندها.. وأجفلت الآن أيضاً لتذكرها الكلمات.. وبدأت الدموع تتجمع في عينيها دون أن تتساقط.

ـ آنتي سالي.. هل أستطيع الدخول؟

أعادها صوت الصبي الأشقر الأزرق العينين، من ذكراها المؤلمة، فاستدارت لتنظر إلى وجه الطفل، الذي كان يقف إلى جانبها... هل أن شبهه لكولن هو الذي دفعها لأن تحبه؟ والتفتت ثانية إلى الصورة.. ثم ابتسمت:

ـ لكنك دخلت..

وأمسكت باليد الصغيرة المتسخة.. فضحك:

ـ مامي تقول أيمكن أن تستقبليني لساعة؟ يجب أن تخرج لتتبضع. ساعة..؟ مخزن الشراء يبعد أربعة أميال، وماريا مضطرة لركوب الباص.. مع ذلك أجابت:

ـ أجل.. بالطبع.. اذهب وقل لها.

ـ أيمكن أن أصطحب معي قطتي؟

ـ لا حبيبي.. أنت فقط!

ـ بندقيتي؟

ـ إذا شئت ذلك.

لاحظت سالي أطراف أكمام كنزة تيموثي البالية وشعرت بالغضب.. لم يمض شهر على شرائها له.. فما الذي فعلته أمه لتوصلها إلى هذه الحالة؟

ـ ولعبة الدب؟

ابتسمت سالي.. لقد تمتعت بشراء الدب له، فقد كان يشبه الدب الذي كان لها وهي طفلة..

ـ أجل.. أحضر دبك معك.

ـ لن أتأخر دقيقة!

ذهب مسرعاً.. تيموثي نشيط في الرابعة من عمره، وهو ذكي جداً.. أمه مطلقة تعيش مع والدها كبير عمال الحديقة عند غافن هنتلي، في أحد الأكواخ الجميلة، تنمو ورود حمراء على بابه وتمتد فوقه.. وكان يفتخر جداً بحديقته، ويترك الأزهار تنمو كما يحلو لها مع بعض العناية.. كانت سالي تحبه كثيراً، وتشعر بالأسى عليه. لا بد أنه تلقى صدمة كبيرة حين ولد تيم.. فقد اضطرت أمه لترك عملها، لتكون مدبرة منزل والدها. مع أن معظم سكان الأملاك يقولون إنها كسولة، تمضي معظم وقتها في قراءة المجلات، وتدخين السكائر، وتمضي كل يوم سبت بعد الظهر في قاعة «البنغو» ولطالما رأت سالي السيد اندرسلي ينظف نوافذ المنزل بعد عودته من عمله، أو يلمع القارعة النحاسية على باب كوخه.. وهكذا، كان تيموثي يبدو مهملاً، بالرغم من تزويد سالي له أحياناً بالثياب والأحذية.. وغسله جيداً متى جاء إلى كوخها.. فيما كانت ماريا دائماً أنيقة الملبس حين تخرج، فهي جميلة، ذات شعر بني فاتح مجعد، وعينان زرقاوان كبيرتان.. وشابة في ذات عمر سالي.

اقتحم تيم المطبخ مقطوع الأنفاس:

ـ ها قد وصلت.. لم أتأخر.. أليس كذلك؟

رمى البندقية والدب، ونظر إلى الخزانة حيث يعلم بوجود البسكويت في العلبة المستديرة:

ـ أنا جائع.. أفضل البسكويت بالكريما.. ألديك منها آنتي سالي؟

ـ أعتقد أن لدي القليل..

عيناها كانتا حزينتان.. لو أن لديها ولداً مثله لربما كانت الحياة محتملة أكثر.. على الأقل يصبح لديها شيء تحيا لأجله.

نظر تيم إليها متوسلاً:

ـ أتعطيني إياها أرجوك؟ ولن أمانع بكوب من الحليب أيضاً.

ـ ستحصل عليها.. أين جدك اليوم؟

ـ يعمل. طلب منه ذلك السيد هنتلي.. وأنا مسرور لذلك، لأنني

أرغب بالبقاء معك. أحب أن تعتني أنت بي وأحب أن أعيش معك.. كم قطعة بسكويت عندك؟ أستطيع العدّ حتى.. أووه.. إنها مختلفة! ولها كريما على وجهها أيضاً!

توجهت إلى البراد لإحضار زجاجة الحليب وعادت:

ـ هاك الحليب.. احذر أن تريقه.

ـ هل وضعت لي الكريما فوق الحليب؟ أحصل على هذا حين يعطيني جدي الحليب، لكن ليس حين تعطيني إياه مامي.. فهي تريد الكريما لتشربها مع القهوة.

تقدم معها إلى كرسي مرتفع، تحتفظ به سالي خصيصاً له، جلس وعيناه الكبيرتان تتفحصان قطعة البسكويت في يده.

ـ أيمكن أن نخرج لنتمشى بعد أن أشرب الحليب وآكل البسكويت؟

ـ إذا أحببت هذا.. أين سنذهب؟ لا يجب أن نبتعد.. فالطقس يبدو قاسياً وكأن الثلج سينهمر.

ـ ألن تتبلل مامي؟

ـ لا.. لا أظن هذا.

مد تيم يده إلى تنورتها، فأمسكت بها وقالت بصوت منخفض:

ـ أنت كنز صغير..

ـ مامي تقول إنني نذل صغير.. قالت للسيدة كوردال، إنها كان يجب أن تعطيني لأبي.. هل أبي هو «دادي» قبل «دادي» توم؟ أحب «دادي» توم، وأتمنى لو كان لي مثله..

قطبت سالي حاجبيها فماريا لم تقل لأحد يوماً من هو والد تيم.. في الواقع تصتها عن زواجها وطلاقها كلها كانت غامضة.. حسب القليل من الشائعات التي سمعتها.

ـ هيا اسرع واشرب الحليب تيم.. إذا أردت الخروج، فيجب أن نمضي الآن.

ـ أوكي!

جرع ما تبقى من الحليب وأعطى الكوب لسالي:

- سآخذ البسكويت معي.. هل أستطيع؟

- طبعاً، أتريد كيساً تضعها فيه؟

- لا.. سأحملها في يدي.

نظرت إليه وابتسمت، كم هو طفل جميل!

- لكن يجب أن نرتدي معطفاً.. سنذهب ونحضره لك.. ألا زالت أمك تضع المفتاح فوق الباب؟

- أجل.. أظن هذا.

ماريا، التي كانت تطلب من سالي دوماً، العناية بابنها، قالت لها مرة إن المفتاح فوق إطار الباب وإن بإمكانها الدخول إلى البيت إذا احتاجت شيئاً له

شعرا بقسوة البرد ورذاذ الثلج عندما خرجا من البيت.. بعد عشر دقائق كانا يسيران عبر ممر ضيق في الغابة.. حين صاح تيم فجأة:

- ها هو السيد هتلي! أنظنينه خرج ليتمشى كذلك؟

وصل صوته إلى الرجل، فأدار رأسه.. ثم توقف، ينتظرهما ليصلا إليه، مع ذهول سالي.

- مساء الخير سيدة والينغ!

حياها بصوته العميق الأجش... كم يتناسب هذا الصوت معه! مع هذه القسمات الداكنة القاسية، وهاتين العينين السوداوين الحادتين. كان طوله يتجاوز الستة أقدام، له كتفان عريضتان متكبرتان، وجسد نحيل ذو عضلات قوية.

- أنا مسرور برؤيتك، أريد مناقشة أمر معك.

لهجته كانت عادية مع ذلك، كان فيها شيء لم تفهمه، وأكمل:

- أيمكن أن تأتي إلى القصر هذا المساء؟ إذا لم تتمكني، ربما تقولين لي أين يناسبك أن نلتقي.

ردت بحيرة وارتباك:

- تريد مناقشة أمر معي؟ هل هو مهم؟

لم تكن لديها رغبة في الذهاب إلى القصر، فالمكان كئيب مقبض للصدر، كما قيل لها.. مظلم، ينقصه الدفء.

- لو لم يكن الأمر مهماً سيدة والينغ، لما طلبت منك المجيء لرؤيتي.. أؤكد لك أنه مهم.

نظر إلى الصبي بتجهم.. لهجته كانت فعلاً متوترة، وفكه مشدود رجل مخيف حقاً!.. بالكاد يشبه البشر! لا يمتلك أية أحاسيس بكل تأكيد، ولا عواطف يمكن أن تتجاوب مع الألم أو الحزن، أو أية مشاعر.. إنه رجل قاس دون مشاعر.. رجل مكتفٍ بنفسه، لا يهتم سوى بما يؤثر به مباشرة، وبطريقة حياته.. وكل العاملين لديه يتعامل معهم وكيله، وليس بينه وبينهم أي اتصال إلا حين يشاء

قالت سالي، موافقة، ولو مع بعض التردد: حسن جداً

كانت تحاول التفكير بما يمكن أن يريده منها، والتفسير الوحيد كان أنه يريد استعادة البيت منها لأحد العاملين في المزرعة فهو لم يكن مضطراً أن يتركها تعيش فيه، والعديد أدهشه أنه فعل هذا

سألها غافن وعيناه تتحركان بتعبير غريب بينها وبين الصبي

- هذا المساء؟

بدا وكأنه يهتم بالعلاقة بينها وبين الصغير اشتدت قبضة يدها دون وعي على اليد الصغيرة وأجابت

- أجل.. إذا كان هذا ما تريد في أي وقت؟

تردد، وكأنه يقرر موعداً. ثم قال

- ربما ستأتين وقت العشاء؟

- العشاء؟

اجتاحها التوتر. ماذا يمكن أن يكون السبب وراء دعوته لها للعشاء؟

رفع تيم رأسه، وقد قرر أنه بقي صامتاً بما فيه الكفاية

- أيمكن أن أرافقها؟

تمتمت سالي بصوت منخفض:

- لا يا عزيزي.. ستكون في فراشك في ذلك الوقت

- جدي سيثني صاحباً.

ابتسمت له:

- قد يفعل نيم، ولكن أمك لن تسمح لك.

- أحب أن أتناول العشاء في القصر.

رفع نظره إلى القسمات القاسية، وبدا بوضوح أنه لم يتأثر بالعبوس الذي شاهده

- أنا جائع سيد هنتلي، فلماذا لا أستطيع أن أتعشى في منزلك؟

ابتسمت سالي لهذه البراءة الساذجة.

- سيهطل الثلج عزيزي، لذلك من الأفضل أن نسرع بالعودة إلى البيت.

- هل قبلت دعوتي سيدة والينغ؟

هزت رأسها، لكن بحيرة:

- لست أدري.. سيد هنتلي.

- سأتوقع وصولك حوالي السابعة والنصف.

وقبل أن تتمكن من الكلام، استدار ليسير مبتعداً في الاتجاه الذي جاء منه.

تساءلت سالي، لماذا تتكبد مشقة الاعتناء بمظهرها هكذا؟ ربما هذا مرده للاحترام الذي يجب أن تظهره للورد النبيل، صاحب الأملاك. فعلى أي حال هو شخص مرموق! ثري ومثقف! الأخير من سلالة ارستقراطية. وهو يتطلب، وبشكل آلي، الاحترام بالرغم من التذمر من تصرفاته القاسية بين الناس.

كان يتصرف وكأنه الملك، يحيط به أتباعه، الذين يتوقع منهم الطاعة والخضوع مع كل هذا فهو محترم. ومن المعروف أنه لم يكن يوماً ظالماً مع أي من موظفيه، وما توقع يوماً من أحدهم أكثر مما يمكنه أن

يعطيه بشكل معقول. كان يدفع أجوراً مرتفعة كان المسؤول عن أي مرض يصيب أياً من عماله. وفكرت سالي وهي تضع العطر على شعرها: أجل.. غافن هنتلي له بالفعل صفات جيدة وسببها يتطلب الاحترام.

تطلعت إلى مرآتها كنظرة أخيرة، ووجدت نفسها تتذكر آخر مرة ارتدت فيها هذا الفستان المخملي الأحمر القاتم تنهد كولن يومها لدى رؤيتها تقف هناك، أمام طاولة الزينة في غرفة النوم.

- أنت ملكة.. ملكتي أنا.. التي أحب وأحترم!

كانا ذاهبان إلى حفل راقص يقيمه أحد زملاء أبيه وبطريقة ما حصل السيد والينغ على بطاقتين لابنه وزوجته لعلمه أن حياتهما الاجتماعية محدودة بسبب عيشهما في منزل صغير من أملاك رجل يعتبر لوردا إقطاعياً. وأكمل كولن

- ستكونين محط الأنظار

وثبت بالفعل صدق كلامه، فالفستان الطويل المضموم عند الخصر، الواسع الياقة، والأكمام الطويلة الواسعة، المرشاة بالذهب، كان له طراز العصور الوسطى. وقد تلقت سالي الكثير من عبارات الإعجاب وهي تتجول بين الضيوف لتتعرف إليهم قبل جلوس الجميع إلى المائدة إن هذا الفستان مناسب لهذه الأمسية أيضاً وأخرجت حقيبة يدها المناسبة له أجل إنه زي مناسب جداً للعشاء في القصر، مع صاحبه الارستقراطي غافن هنتلي.

كان لديها سيارة صغيرة تستخدمها في الذهاب إلى عملها في المدينة التي تبعد خمسة أميال والعودة منها كانت لكولن قبل زواجهما، ولم تصعد فيها مرة إلا وأحست بألم حارق، وبتجمع الدموع في عينيها

لكن، للغرابة، كانت هذه الأمسية مختلفة فالإحساس بالخوف هو الذي اجتاحها وهي تجلس خلف المقود وتدير المحرك ومر ماضيها أمامها دون سبب ظاهر. فموت والديها، تركها وحيدة في العالم، ثانية

www.liilas.com

دون قريب أو صديق لا يرافقها سوى الحزن. ثم ظهر كولن في حياتها ليغير هذه الصورة، ومع ذلك بقيت تحس أنها تائهة، وطافت حيث قادها كولن، تترك كل القرارات له.. كانت خجولة بطبيعتها، ولم تكن واثقة من نفسها يوماً.. وها هي عادت لتكون وحيدة مجدداً.. مرمية مرة أخرى كورقة في مهب الريح.

الآن، وهي تدير المحرك، وتوجه السيارة نحو الممر، كان ذهنها مليئاً بتدابير أنها ستصبح عرضة أكثر للعذاب واليأس.

بدأ الثلج يتساقط، ويستقر على الزجاج الأمامي. التلال البعيدة، كانت مختفية.. والطريق كأنها شريط أبيض ينساب ما بين أشكال ضبابية من الشجيرات المنخفضة التي تحدها على كلا الجانبين.. إنها ليلة كئيبة، فيها إحساس بالعزلة.. كل شيء صامت ما عدا هدير محرك السيارة.. إلى أين هي ذاهبة؟ ولماذا؟ انعطفت بقوة لتدخل ثانية ضمن الأملاك، فلاح القصر أمامها كمملاق، متجهم، بالرغم من الأضواء المنبعثة من نوافذه، وقوس الأنوار القوية فوق فناءه.. أحست سالي أن تصرفاتها تسيطر عليها يد غير مرئية، وأجفلت متكمشة من فكرة هذه الزيارة إلى المنزل المظلم البارد، الذي كان يوماً معقل البارونات البرابرة لحصن وارندايك.. مع ذلك، تابعت قيادة سيارتها نحو القصر.

وجدت سالي نفسها ترتجف بعنف، بالرغم من دفء الفستان، والمعطف المخملي الأسود الذي ترتديه فوقه.. كان للمعطف قبعة متصلة به تغطي شعرها الذهبي.. ولم تكن تدري كم تبدو كطفلة وكيف أن مظهرها كان يذكر بالأزياء العتيقة التي تبرزها ثيابها.. وكان للبراءة المرسومة على وجهها والتعبير الجميل في عينيها، اللتان فيهما نعومة الحمام ما يجعلها مميزة، ويجد الناس أنفسهم أسرى الإعجاب بها.

هدرت السيارة تخترق الثلج المتهمر، لتدخل باحة القصر الخارجي، بعد المرور عبر بوابتين مزدوجتين من الحديد المشغول يدوياً..

من الفناء، كانت عدة درجات حجرية توصل إلى باب خشبي ضخم،

فتح على مصراعيه، حتى قبل أن توقف سالي سيارتها. تقدم خادم متوسط العمر، وقال بصوت رفيع:

ـ مساء الخير سيدة والينغ.. إنها ليلة سيئة للخروج.

كان الثلج يتراكم على قبعتها وأطراف شعرها. وقفت جانباً بينما أغلق الخادم الباب، ثم استدارت لتنتظر في الردهة الواسعة المزينة جدرانها مليئة بالسلاح والدروع من مختلف الحقبات التاريخية، مع قرون للوعول، والبسط المعلقة فوق خزائن ضخمة من السنديان، والأثاث الأثري الثقيل. فكرت سالي بمنزلها الصغير الدافىء، وارتجفت تحت المعطف الذي ترتديه.. استدار الخادم، ليأخذ منها المعطف، لكن عيناه تحولتا عنها، فالتفتت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع سيد القصر المخيف.

حيّاها بصوته الهادىء الأجش:

ـ مساء الخير.. لم تجدي الطريق صعباً إذاً؟

ـ لا.. فالثلج لم يكن يتساقط منذ فترة طويلة.

أحست نفسها خاشعة خجلى، وكأنها بين يدي امبراطور عظيم، مما ذكرها بأسلافه الأغريق، لجهة أمه.. إنها لا تعرف شيئاً عن اليونان الحديثة، لكنها تعرف أساطيرها القديمة.. رفعت نظرها إلى وجه غافن هنتلي، لونه يلون خشب الساج، لامع البشرة، العينان السوداوان قاسيتان كالرخام، ومركزتان عليها في نظرة متفحصة بدت وكأنها تستوعبها تماماً حتى ما يدور في أعماق أفكارها. خشيت أن تكون قد بدأت تحمرّ وازداد خجلها. ارتجف فمها، ليفضح واقع أنها لم تكن واثقة من نفسها كفاية.. لكن وجه الرجل لم يتغير، كما كان لمعظم الوجوه أن تفعل، ولا خفّت خشونة صوته، بل مدّ يده إلى معطفها، مضيفاً أنه مسرور لتمكنها من المجيء.

تذكرت أنه أمرها فعلياً أن تجيء، وتسللت مبتعدة عن أصابعه كي لا تلامس عنقها.. إنه لم ينتظر سماع قبولها لدعوته، بل ابتعد قائلاً إنه سيراها في المساء.. وها هي قد أطاعته دون سؤال.

أعطى المعطف للخادم، الذي ابتعد بصمت. وقادها غاف هنتلي نحو سلم ضخم، صعداه قبل الدخول إلى غرفة استقبال من خشب الأرز عبر باب خشبي محفور، تحيط به أعمدة من الرخام من الطراز الإغريقي القديم. توقفت سالي داخل الغرفة مباشرة لتشهق بصوت منخفض، وكأنها تتمتم لنفسها:

- إنها جميلة جداً

تنقلت عيناها بسرعة قبل الانتقال إلى السقف حيث رسمت بكل دقة وجمال لوحة تمثل «عطارد»، رسول آلهة الإغريق. الكثير من الذهب استخدم في الرسم، ليكون له تأثير مشرق ولطيف. الجدران مليئة باللوحات للمشاهير. الفسحات النادرة الوجود قرب النوافذ كانت مغطاة بالستائر القرمزي. بينما جدار آخر مغطى بسجف ملون مشغول باليد، مزوع على أحد أطرافه عام ١٦١٤. وفي خزانة، عرضت مجموعة من البورسلان «السيفر» الفرنسي الشهير.

صوت غاف هنتلي أعاد سالي من تأملها الحالم للكنوز التي تحيط بها

- تبدين مندهشة؟

أجبرت نفسها على الابتسام.

- سمعت أن داخل القصر معتم وكئيب.

هز رأسه، وأشار بيده إلى كرسي:

- لنقل في معظم أجزاءه، هذا قصر كئيب فعلاً.. لكن بعض غرفه هي صالحة للسكن.

تمتمت

- بل إنها مريحة.. هذه الغرفة رائعة الكمال.

نظر حوله إلى اللوحات والبساط المعلق على الحائط، ثم السقف:

- أهذه فكرتك عن الكمال؟ يمكنك العيش فيها إذاً؟

أجفلت بتخل ظاهر. شعرت أن لا معنى لسؤاله، وكان ردها متسرعاً

وصادقاً:

- لا أحب أن أعيش فيها سيد هنتلي.. لكنني بالتأكيد معجبة بها.

كان يقف بجانبها، مرتدياً بدلة على تناسق كامل مع شخصيته وبالرغم من شكله القاسي كان لديه نوع خاص من الجاذبية، لم تلاحظها من قبل.. سألها بلطف وأدب:

- ماذا تشربين سيدة والبنغ؟

قبلت شراب الكرز الذي قدمه لها في قدح مزخرف، وأخذ واحداً له. وتمنت لو أنه بخبرها فوراً ما يريد، فمن الأفضل أن تعرف الأسوأ حالاً بدلاً من أن تشعر بالدقيقة وكأنها ساعة من شدة القلق

سألها بنفس اللهجة المهذبة:

- أيعجبك شراب الكرز؟

- أجل.. شكراً لك.

- سنتحدث ونحن نأكل.. سيقدم لنا العشاء بعد عشر دقائق.

أتحبين شواء البط؟

- أحبه كثيراً.

- رائع.. طباختي خبيرة في طهو البط.

دخلا غرفة الطعام، التي كانت أصغر بكثير مما توقعت، ودفعها فضولها لتسأل:

- أهنا كان يقيم والدك تلك الدعوات للعشاء التي يتحدث الناس عنها؟

هز رأسه نافياً:

- قاعة الطعام الرئيسية في القصر يبلغ طولها سبعين قدماً تقريباً.. أنا أفضل هذه، والتي كانت فيما مضى غرفة «اللابدي».

نظرت سالي إليه، متأكدة من لكنة السخرية وهو يلفظ كلمة «اللابدي».. لقد قيل لها إنه لم يكن على علاقة حب من قبل، وإنه يكره النساء، ويعتبرهن عابثات طائشات، تفاهتهن مملة.. لكنها علقت بخفة:

ـ لا أستطيع تصور غرفة طعام يبلغ طولها سبعين قدماً.

ـ إنها تدعى قاعة المآدب.. وسترينها على الأرجح قبل ذهابك من هنا.

صاحت قبل أن تتمكن من منع نفسها:

ـ أراها! لماذا أراها سيد هنتلي؟

لم يرد عليها، بل جذب لها الكرسي مشيراً لها بأن تجلس. وهذا ما فعلته، فلم تكن تشعر بالثبات لتقف طويلاً على قدميها وعرفت على الفور أن ما ينوي قوله، لا علاقة له البتة بالمنزل الذي تعيش فيه. والذي ظنته يريده لأجل أحد موظفيه.

* * *

٢ ـ اترك لي حزني

قدّم الخادم، جايسون، الطعام الذي كان عبارة عن سمك السلمون المدخّن كطبق أول، تمتعت سالي به أكثر مما توقعت حيث أن غافن هنتلي كان يتحدث إليها بطريقة ودية، مع أن الخشونة في صوته كانت ظاهرة طوال الوقت.. ثم قُدّم لهما الحساء وخلال تناوله جاء السؤال الذي جعل أعصاب سالي تتوتر:

ـ مضى حوالي ثمانية عشر شهراً على وفاة زوجك.. أليس كذلك؟

كسرت سالي قطعة خبز، إلا أنها بقيت تعبث بها. رأت في عيني غافن هنتلي السوداوين غاية معينة، حاولت تجاهلها دون نجاح.

ـ أجل.. أجل.. هذا صحيح.

ـ لا بد أنك تغلبت على ذكراه الآن؟

صحيح أنه سؤال، لكنه كان أشبه بتقرير أمر واقع. كان صوته عادياً إلا أن سالي شعرت بالرغم من وداعتها الطبيعية، بشيء من السخط نحوه:

ـ مع حب عميق، كحبنا، يستحيل على الإنسان أن يتغلب على الذكرى.. سيد هنتلي.

تجهم وجهه فجأة بشكل أثار حيرتها واهتمامها معاً، وضعت قطعة الخبز في فمها، والتقطت الملعقة لتتذوق الحساء.

ـ ألا زلت تحبين كولن؟

بدا متعجباً لذلك، لكنه لا يعرف الحب، ولا أحب مرة، إذ أنه بكل بساطة، ذو طبيعة باردة لذلك أدهشها أن تسمعه يقول:

ـ المشاعر مهمة.. لكن يجب أن تتقبلي أنها تمثل حالة ذهنية معينة لا غير.

قول مليء بالألغاز، لكن الجزء الأول منه لفت اهتمامها، فأجابت:

www.liilas.com

- إذا كنت توافق أن المشاعر مهمة، فأنت إذاً تتفهم ما أشعر به نحو زوجي.

- وما الذي جعلك متأكدة أنني لا أتفهم سيدة والينغ؟

ردت بهدوء:

- لست أدري كيف لك أن تتفهم.. إذ أنك لم تتزوج من قبل.

- أعتقد أنك محقة، سيدة والينغ.. على المرء أن يحب قبل أن يختبر الحزن الذي عانيته دون شك.

كانت لا تزال تعاني، لكن لا جدوى من إخباره بهذا.. تقدم جايسون ليملأ كوبيهما، حين ذهب أمسك غافن بكوبه، وحدث سالي حدوه، ثم قال لنشرب نخب المستقبل. فالتوى فمها بمرارة:

- ليس هناك من مستقبل بالنسبة لي، سيد هنتلي.

نظر إليها مفكراً:

- المستقبل، سيدة والينغ.. هو لك، ولي.

- ماذا؟

- اشربي.

أطاعته دون سؤال، بخضوع، فهي لم تختبر التحدث مع أمثاله من قبل. فالرجل سيد هذا الموقف الذي لا غور له، والذي وجدت نفسها فيه دون إرادتها. وقال:

- آمل أن تكوني مهتمة بالزواج ثانية، سيدة والينغ.

كان قوله هذا، عادياً وعفوياً! صدمتها كلماته تلك، لكنها ذكية بما يكفي لتفهم المعنى.. نظرت إليه بذهول، كانت الكأس ترتجف بين يديها لكنه مد يده في الوقت المناسب، ليمسك به.

قالت، بعد أن تمكنت من استعادة تفكيرها:

- لا يمكن أن تكون جاداً.

- تعرفين أنني جاد.. فمن المستحب أن أتزوج في وقت قريب.. أريد وريثاً.. لكن الحقيقة أن هناك أكثر من ذلك.. وأنت وحيدة في هذا

العالم..

رفعت سالي يدها، معترضة وهي تهز رأسها قائلة:

- سيد هنتلي..! لا يمكن أن تكون راغباً في الزواج بي! أنت لا تعرفني جيداً! أنا لست كفؤة لك.. كذلك، أنا لا زلت أحب زوجي. وسأبقى دائماً أحبه.

صمتت للحظات، رفعت كلتا يديها هذه المرة، لكن بإشارة عجز أكثر منها إشارة احتجاج غاضب:

- أنا لن أتزوج.. أبداً!

رد بصوت يخلو من العاطفة تماماً:

- تقولين إنك تحبين زوجك.. لكن لا زوج لك. وإذا كنت تقولين إنك ما زلت تحبين كولن، فأنت تحبين صورته فقط.. فهو لم يعد له وجود..

صاحت سالي:

- أرجوك! هذا أمراً غير مستحب منك! ولا فكرة لك كم هو غير لطيف أيضاً! إنه.. إنه يؤلمني..

لم تعد تستطيع كبح دموعها.. فتساقطت حتى وهي تعتذر.. وراقبها غافن هنتلي دونما أي تأثر، عيناه مركزتان على يدها المرتجفة التي رفعتها إلى قلبها.. وأخيراً تكلم، وبدا أن خشونة صوته لم تعد بارزة، ولا العينان السوداوان قاسيتان كما كانتا من قبل.

- من الجيد، أن تريحي مشاعرك سيدة والينغ.. فلا تعتذري.. جففي دموعك إذا استطعت، فسيحضر خادمي بعد لحظات لتقديم الطبق التالي.

أخرجت منديلاً حريرياً صغيراً مطرزاً، تجفف به عينيها.. لكنه لم يكن كافياً لاحتواء دموعها.. لدهشتها مرر لها منديله، فتقبلته دون تردد.. قالت مرتجفة وهي تعيد المنديل:

- شكراً لك.

www.liilas.com

ـ أنا آسفة جداً سيد هنتلي.

نظرت عيناها المبللتان إلى عينيه.. كيف يمكنه أن يحس بعمق خسارتها؟ وأكملت:

ـ ما كان يجب أن تتكلم عن زوجي.. أترى.. من المستحيل عليك أن تفهم عمق تأثري بذكرى كولن.. كنا مخلصين جداً لبعضنا..

وتلاشى صوتها، فرد بتهذيب، لكن دون غضب:

ـ أنا لست عديم الفهم تماماً.. فمثلاً، أنا أفهم شيئاً مهماً للغاية، لا يمكنك الاستمرار هكذا طوال حياتك، تدينين بالولاء لذكرى. إنه أمر غير طبيعي، ومدمر معاً.

حاولت مقاطعته، لكن يده ارتفعت تسكتها بحجرفة:

ـ ألا تدركين أنك تموتين ميتة بطيئة، وحدك في ذلك البيت الريفي؟

ـ أريد أن أموت!

ـ في الوقت الحاضر، صحيح، أعتقد أنك قد ترحبين بالموت.. لكن ألا تعتقدين أن مثل هذا التصرف هو تصرف جبان؟

غضبت، ولكنها كانت حذرة ففي الواقع أنها تعيش في أملاكه، وأن معاداته قد تنتهي بطردها من منزلها. فأجابت بهدوء، لكن بحزم:

ـ مشاعري شأن خاص بي سيد هنتلي.. وإذا كنت لا تمانع، لن نتحدث عنها بعد الآن.

عاد الخادم، لكن غافن هنتلي أشار له بالانصراف، فلا هو ولا سالي أنهيا حسابهما بعد. ورد عليها:

ـ كما قلت منذ لحظات سيدة والبنغ، كنت جاداً باقتراحي أن تتزوج. فمنذ بعض الوقت وأنا أفكر بهذا الموضوع.. لكن امرأة متطلبة لن تضجرني فحسب، بل قد تدفعني إلى خطوات قد أندم عليها. لذلك ترين بوضوح فائدة وجود زوجة لي، دورها لا يزيد عن أن تكون سيدة هذا القصر، وأماً لأولادي.

شهقت سالي للبرودة القاسية التي غلفت كلماته.. وما أثر فيها أكثر،

كان الواقع الذي لا جدال فيه في رغبته الصارخة أن يحملها زوجته وارتبكت بتفكيرها المضطرب لتجد تعليقاً مناسباً، لكنها وجدت نفسها تقول:

ـ لا أستطيع الزواج بك سيد هنتلي، اقتراحك منافٍ للعقل!

ـ هذا ما يبدو لك، لأنك لم تفكري به حتى.. فكري به في اليومين القادمين.. وفي هذه الأثناء، دعينا نتمتع بالعشاء.

لهجته كانت حازمة، تعابيره متغطرسة.. فابتلعت سالي ريقها بصعوبة، تتساءل لماذا لا تقف في الحال، تطالب بمعطفها، وتغادر المكان. لكنها، أخذت تراقبه بلتقط الملعقة، إنه هادىء جداً.. واثق من نفسه أجل.. ثقته بنفسه واضحة فوق هذا الوجه المتجهم القاسي أمامها.. وهذا الشعر الأسود اللماع.. للبونانيين شعر كهذا.. شعر تحس أنه كالأسلاك إذا لامسته.. وهذه الجبهة.. ذات النوع الكلاسيكي، تجعلك تفكر بالتماثيل التي تشاهدها في المتاحف.. أيشعر كبوناني؟ إنه نصف بوناني بالطبع، لكن نسبه لأسلافه يبرز بشكل مذهل.

نظر إليها فجأة، وكأنه يؤنبها، فالتقطت ملعقتها مجدداً. أحست أنها في حلم عندما اقترب الخادم بالصينية الفضية التي تحتوي على البط، وسمحت بأن يسكب في صحنها كمية كافية.. لكن، كيف ستأكل في وقت تحس فيه بكل هذا العذاب؟ أعادها إحساسها إلى تجربتها مع كولن، فتركت نفسها تنقاد، ولكن هذه المرة ضد إرادتها.. هل هذا ضعف منها؟

اقتحم صوت غافن هنتلي الأجش أفكارها، وكأنه صوت صرير يخدش الأعصاب:

ـ هل أعجبك البط؟

ـ أجل.. شكراً لك سيد هنتلي.

ـ أظن أنه بإمكانك مناداتي غافن.

مرة أخرى لهجة التسلط تلك، جعلتها تشعر وكأنه يصدر إليها أمراً. فارتفع ذقنها لتقول له بثبات إنها لا يمكن أن تناديه هكذا، وأضافت بحزم:

ـ قلت لك إنني لست مناسبة كفاية.

ـ هل لي أن أسأل، من يقرر تساوي البشر؟

ردت دون تفكير:

ـ بكل تأكيد، تعتبر نفسك أرفع مني بكثير؟

تركزت عيناه عليها بقسوة:

ـ لو أنني أعتبر نفسي أرفع منك، بكل تأكيد ما كنت لأطلب منك الزواج... طعامك يبرد..

وأمسك سكينه وشوكته. تنهدت سالي وأعادت اهتمامها إلى طعامها.. وقررت أن لا تفكر باقتراحه الغريب.. لكنها وجدت الصور تتلاحق عبر مخيلتها.. رأت نفسها تعيش في هذا القصر الكئيب، بغرفه الهائلة العدد، الباردة، تفوح من معظمها رائحة العفن لعدم الاستخدام.. رأت نفسها تجلس كل مساء كما تجلس الآن، في مواجهة هذا الرجل المتجهم الوجه، هذا الأرستقراطي المتكبر، والذي اعترف بنفسه أنه لن يتوقف عند حد العقاب إذا تجرأت أن تخالف رغباته.. أو على الأصح، لو حاولت فرض إرادتها، بالمطالبة بقليل من احترامه.. وشاهدت السنوات الطويلة القاتلة، التي ستبقى أفكارها خلالها مع كولن.

وماذا عن العلاقات الجسدية؟ ارتجفت رغماً عنها.. لا بد أن هذه المحنة ستوصلها إلى مرحلة الانهيار الكامل! أيمكن أن تتحمل معاشرته كزوجة دون حب؟ أيمكن أن تتحمل استغلاله لها بفرض إنجاب وريث لهذا القصر العملاق بتاريخه الرهيب من التعذيب والموت؟ أيمكن أن تتحمل سيطرة وسيادة رجل يثبت تاريخ أسلافه أنه متوحش لا يليق به أن يكون حبيباً؟

ودون أن تدري، شحب لونها.. فنظر إليها بعبوس متسائلاً.. قطعت لتفسها قطعة لحم بط ووضعتها في فمها، كانت ترتجف بسبب أفكارها، وخوفها الذي كان يتصاعد بداخلها تدريجياً.. وللأفكار التي ساورتها.. لو كان لها طفل تحبه.. لا! لا! ليس طفلاً منه! لا تريد طفلاً من أسلافه

من البرابرة!

ـ ما خطبك؟

صوت غافن جاءها كراحة مباركة.. ورفعت نظرها إليه شاكرة، بطريقة ما، وسمت ابتسامة على شفتيها:

ـ لا شيء.. سيد هنتلي، هذا البط لذيذ فعلاً.

ـ تتمتعين بالطعام إذاً؟

ـ كثيراً.

كانت هذه الحقيقة بالنسبة للطعام، ولكن ليس بالنسبة للصحبة.. فكلما سارعت نهاية هذه الأمسية كان هذا أفضل لها.

• • •

ـ آنتي سالي.. هل أنت هنا؟

ـ أجل حبيبي. ادخل.

مرة أخرى، إنه يوم السبت، وكما تتوقع سالي دائماً، كانت ماريا ترغب بالذهاب إلى المدينة.. والدها يعمل، فقد شاهدته سالي منذ دقائق في حقل أشجار السنديان يتحدث إلى العمال..

ـ مامي تقول أيمكن أن أبقى هنا لساعة؟ عليها الذهاب لشراء اللحم لعشاء الغد. جدي يطهو لنا العشاء يوم الأحد، وهو لذيذ جداً!

ـ أجل.. يمكنك البقاء.

ـ أيمكن أن نلعب بكرات الثلج؟ هناك بعض الثلج في الغابة هناك..

تلك الغابة الصنوبرية القاتمة.. لم تحبها سالي يوماً.. قالت مقترحة:

ـ فلنذهب في نزهة بدلاً من هذا.

ـ حسن جداً.. أحب هذا البسكويت مع الكريما فوقها.. ألديك المزيد منها آنتي سالي؟

ـ أجل.. لدي البعض منها لك.

ـ وكوب مليء بالحليب.. أرجوك. قلت لمامي إنني أحس

بالعطش، لكن لم يكن لديها الوقت، وقالت إنني سأحصل عليه عندك.

أعطته سالي البسكويت، ثم الحليب.. شرب بعطش ظاهر، وراقبته بحنان ظاهر في عينيها الرماديتين.. لو أنها أنجبت طفلاً.. لكان يشبه هذا الطفل العزيز.. صبي كان سيعطيها الأمان في وقت تشعر فيه بالغربة..

- كالعادة نيموثي.. جئت بدون معطف، ألم تتذكره؟

- قالت ماري أن أركض إليك.

قضم البسكويت، وتابع:

- لقد وضعت المساحيق على وجهها.. رائحته جميلة.. لكن لا يمكن لأحد أن يأكل الكريم الذي تستخدمه.

ابتسمت:

- لا.. لا يمكنك هذا. سأذهب لأحضر لك كنزة مع المعطف.. اجلس هنا كولد طيب وأكمل البسكويت.

ابتسم.

- قضين أن علي أن لا أدخل غرفة الجلوس ولمس ذلك الجواد الجميل، فقد أكسره. أليس كذلك؟

وقفت سالي بالباب، ومعطفها فوق كتفيها:

- أجل تيم. هذا بالضبط ما أعنيه.

- لأن والدك اشتراه لك في عيد ميلادك، كما قلت لي. تعجبني صورة والدك.. لماذا ليس هنا؟ أنا لم أرَ والدك أبداً لأنه ذهب إلى البعيد.. ألم تقولي هذا؟

هزت رأسها موافقة:

- أجل عزيزي.. لقد ذهب إلى البعيد.

- قلت لماري إنه ذهب إلى البعيد، لكنها قالت إنه مات.

استدارت سالي عنه.

- سأقفل الباب تيم، فالطقس بارد.. لن أتأخر.

كانت ماريا على وشك المغادرة حين وصلت سالي.. بدت الورود

المتسلقة في حالة مؤسفة فالزهور اختفت تماماً، وأوراق الشجر أيضاً. بعد شهر أو شهرين، ستظهر الورود هنا بالمئات لتكون بهجة لصاحبها وحسداً لأصدقائه.

أجفلت ماريا وتغير وجهها:

- أوه.. ! هل جئت لتقولي لي إنك غير قادرة على استقباله؟

- لا.. بالطبع لا.. جئت لآخذ معطفه، وكنزة. فنحن سنخرج، والطقس بارد.

جالت عينا سالي في الوجه البيضاوي الجميل بعينيه الزرقاوين الكبيرتين، والشفتين الورديتين، إلى المعطف الفروي الباقة، إلى الحقيبة والحذاء المتناسبين والقبعة الرائعة التي ترتديها.. إنها فتاة جذابة، ومن المؤسف أن تدمر حياتها هكذا.

واضح أن ماريا كانت على عجلة من أمرها فأجابت:

- إنه قوي البنية، تعرفين هذا، ولن يحتاج إلى كنزة.

لكن سالي أصرت:

- سآخذها بنفسي إذا أردت الذهاب ماريا.

نظرت ماريا إليها بطريقة غريبة وكأنها تراها للمرة الأولى

- معطفه معلق في الخزانة تحت السلم..

- أعرف هذا، وأين الكنزة؟

- ليس لديه واحدة في الواقع.. على الأقل ليس ما يناسب قياسه سأحيك له واحدة في وقت ما.. لكن الآن..

وهزت كتفيها دون اكتراث وتابعت:

- ... عليه الاستغناء عنها.

ضاقت عينا سالي وهي تنظر إلى ملابس ماريا الأنيقة، وقالت:

- اشتريت له كنزة منذ بضعة أسابيع ماريا.. ولقد اعترات عند الأكمام، كما لاحظت، لكن لا شائبة غير هذا فيها.. لو أعطيتني إياها لأصلحتها.

صمتت ببطء بينما كانت ماريا تهز رأسها:
- لقد احترقت وأنا أجففها قرب النار.
- احترقت؟ كيف حصل هذا؟
فجأة لمع وجه ماريا بالغضب.
- ليس لدي وسائل راحة حديثة مثلك! وأنا مضطرة لتجفيف ملابسنا على حمالة قرب النار! وإذا كنت مهتمة جداً للأمر فابتاعي له كنزة أخرى! لديك سيارة، ولن تتأخري أكثر من عشر دقائق للذهاب إلى البلدة.. أما أنا فمجبرة على استخدام الباص، فلا مال لي ولا حمل.
صمتت فجأة تنظر إلى ساعتها، ودون أي كلمة أخرى، وكشت عبر الممر القصير إلى المرجة الصغيرة، في طريقها نحو الطريق العام.
ذهلت سالي لتصرفات الفتاة الطائشة، والتي كانت تتكلم وكأن عليها شراء الثياب للطفل!
ببطء وتفكير، دخلت سالي المنزل عبر الباب الذي تركته ماريا مفتوحاً. أخذت المعطف، وانتزعت المفتاح من الداخل، وأقفلت به الباب، ووضعته في المكان المعتاد. كانت تتحرك آلياً وتفكر.. لماذا تبنت ماريا هذا التصرف المعادي معها؟ ووجدت نفسها أمام انطباع أنها كانت تبدي هذا العداء منذ بعض الوقت.. وفي الواقع منذ زمن طويل.. ولم تعد تستطيع كبح نفسها كما يبدو. لكن كل هذا لا يبرر تصرفاتها الآن.
قال تيم حين دخلت منزلها:
- لقد تأخرت.. مع أنني كنت طيباً..
كان يجلس على مقعده، لكن يقلق.. نظرت إلى الباب الموصل إلى غرفة الجلوس.. الجواد البورسلان الذي اشتراه لها كولن، طالما أعجب تيم وحاول كثيراً أخذه عن الطاولة التي وضعته عليها.. كان الصبي يراقبها وهي تدخل الباب المفتوح، وصاح بإلحاح حتى قبل أن تدخل:
- وقع لوحده! لم ألمسه آنتي سالي! وقع لوحده!

كان التمثال على الأرض، كما وقع تماماً، محطماً قرب زاوية المدفئة.. تدفقت الدموع إلى عينيها وهي تنحني لتلتقط قطعه المتناثرة. إنه أول هدية اشتراها لها كولن.. وأول شيء في منزلهما ينكسر.
استدارت تنظر إلى الصبي:
- تيم.. وعدتني أن لا تلمسه.. أتذكر؟
- أجل.. لكنه وقع لوحده..
- صحيح تيم؟
ارتجفت شفتاه:
- رفعته لأتلمسه فقط.
نظرت إلى القطع في يدها.. ما حصل قد حصل.. وهي الملامة، وأحست بسخط قوي نحو تيم.
- هل أنت غاضبة مني آنتي سالي؟
كان الولد يبكي، فانحنت تقبله وتبعد عنه مخاوفه.
- لا تيم.. لست غاضبة.. لكن لن تفعل شيئاً كهذا بعد الآن.. أليس كذلك؟
- لا.. لن ألمس شيئاً! هل سنخرج في نزهة؟
وضعت القطع المكسورة على الرف، كانت تأمل في إصلاحه، لكنها تعلم تمام أن هذا مستحيل.. إلا أنها لم تستطع إجبار نفسها على رميه في سلة المهملات.. فجأة سمعت صوت غافن هنتلي وهو يقول لها إنها تدين بالولاء لذكرى، وأحست بالراحة لأنها لم تعاقب الطفل.. فإيلام الحيّ لأجل شخص ميت، أمر خاطئ.
- تعال.. ارتد معطفك.
- أوه.. هل سنخرج الآن؟
- سنذهب إلى البلدة لشراء أشياء.
- أووه.. هل ستشترين لي الحلوى؟
- سأفكر بالأمر.

- وهل سنذهب بالباص؟
- لا . . بل في السيارة.
برقت عيناه:
- هل يمكن أن أجلس قربك آنتي سالي؟
- طبعاً . . لكن يجب أن تبقى هادئاً.
أحضرت معطفها وحقيبة يدها، فقال لها:
- أجل . . فإذا لم أكن هادئاً سيحصل لنا اصطدام وننتهي في المستشفى . . أليس كذلك؟
إبتسمت له
بعد ساعة، كانت تدفع ثمن كنزتين اشترتهما له، واشترت كذلك حذاءاً، وبدلة صغيرة مؤلفة من بنطلون مخملي وسترة لها أزرار نحاسية براقة. وكان تيم في أوج سعادته، يريد أن يلبسها على الفور . . لكنه رضي بحمل الكيس البني إلى السيارة . . كانا يسيران في الشارع نحو المقهى الصغير حيث اعتادت سالي تناول طعامها . . فقال لها الصبي يذكرها:
- لم تشتري لي الحلوى بعد . . أحب السكاكر أكثر من أي شيء . . أوه . . هذه هي مامي . . مع رجل!
أشار تيم بحماس، ونظرت سالي إلى حيث أشار، وفي الوقت المناسب رأت ماريا تدخل السينما وإلى جانبها شاب، لكن من الصعب التكهن فيما إذا كان يصحبها أم لا.
السينما . . ! الجميع كان يعتقد أنها تذهب كل سبت لتلعب البينغو . . لكن واضح أن الجميع مخطىء . . أمسكت يد الصغير وقالت:
- تعال لنتناول فنجان شاي.
لكنه أخذ يلوي رأسه، باحثاً عن أمه ثم قال:
- هل سنتناول الكايك بالكريما آنتي سالي؟
- إذا أردت واحدة، فستحصل عليها، عزيزي.

أمر غريب . . ها هي تعتني به، تشتري له الثياب، تعطيه الشاي والحلوى . . بينما أمه في السينما، وعلى الأرجح مع صديق.
كان المقهى مكتظاً بالناس حتى الباب، وأصيب تيم بخيبة أمل حين قالت سالي إنهما لن يتمكنا من تناول الشاي . . فسألها وهو يكاد يبكي
- ألا يمكننا الذهاب إلى مقهى آخر؟
- ليس هناك من آخر.
نظرت باتجاه فندق في الناحية الأخرى من الطريق . . «هارنروب» مكان مكلف جداً . . لكن لو ذهبت إلى هناك فستنقذ الطفل من خيبة الأمل.
دخلت سالي، وطلبت الشاي والحلوى . . ثم أخذت تتطلع حولها . . لقد جاءت إلى هنا عدة مرات مع كولن . . لكن الصالون قد أعيد تزيينه مؤخراً، وبالكاد تعرفت إليه . . كل شيء تغير بعد موت كولن.
صاح تيم فجأة:
- ها هو السيد هتلي!
أجفلت سالي، وارتفع اللون الأحمر إلى خديها، كان يمكن أن تهرب لو استطاعت، لكنه كان يتقدم إلى طاولتهما، بعد أن شاهدها مع الطفل.
- مساء الخير سيدة واينغ . . أتمانعين أن أنضم إليكما؟
كانت رنة صوته مؤدبة هادئة، وفي عينيه تعبير غريب . . لا بد أنه رأى أنها لم تشرب الشاي بعد، وأن هناك مكان فسيح له . . طلبت من الصبي أن يجلس قربها، ولاحظت النظرة الساخرة وترفع حاجبي غافن الأسودين . وازداد احمرارها . . فلقد عرف أنها تفضل أن يكون قبالتها بدلاً من جلوسه إلى جانبها.
سألها، وهو يغوص بجسده الطويل القوي في المقعد الناعم:
- هل طلبت الشاي؟
- أجل شكراً لك.
هذا الرجل يثير أعصابها . . ربما بسبب قوته، سيطرته الموروثة

بدا متفوقاً، وأحست أنها لا تتناسب معه.. إضافة إلى هذا، كانت محرجة بذكر أسمائهما معاً.. فبعد العشاء حاول قدر المستطاع إقناعها بالزواج منه، وأكد لها، أن الوقت وحده هو أفضل ترياق للشفاء... وجادلته، حتى أنها تشاجرت معه. وفي النهاية.. فقد صبره معها، وعرفت على الفور أن لا شيء كان يرضيه أكثر من أن يمسك بها ويهزها بعنف.. لقد اعترف بصراحة تامة أنه يريد وريثاً، لكنه قال إن هناك أكثر من هذا في نفسه..

- سيد هنتلي.. أتشتري لي بعض الحلوى من فضلك؟ أحب السكاكر..

- حبيبي.. لا يجب أن تطلب من السيد هنتلي أن يشتري لك الحلوى.. كن صبوراً وسأشتري لك السكاكر.

- ولوح شوكولا؟

- أجل.. ولوح شوكولا.

أشاحت بنظرها عن النظرة المتفحصة التي كان يرمقها بها غافن..

- أيمكن أن أعرض كنزتي الجديدة للسيد هنتلي؟

عضت شفتها، دونما سبب، فلقد شعرت بالغضب لأن يعرف غافن أنها تشتري الثياب للولد:

- أنا واثقة أنه لا يريد رؤيتها.

- لكنك مخطئة سيدة والينغ.

واستدار إلى الطفل:

- أهي في هذا الكيس هناك؟

- أجل، وهناك كذلك بذلة جميلة في السيارة، وحذاء وجوارب ملونة و...

- تيم..

قاطعها غافن:

- أجل.. حذاء وجوارب وماذا بعد؟

- قميص له جيوب عدة.

نزل تيم وفتح الكيس المحتوي على الكنزتين، وأخرج واحدة منهما.

- إنها زرقاء.. أتعجبك؟ والأخرى خضراء! إنها جميلة ودافئة! أتعجبك؟

- جداً.. ستبدو أنيقاً فيها..

ضحكة جذلى جذبت الاهتمام أكثر إلى الصبي.

- هذا ما قالته لي السيدة التي تعمل في المتجر.

طوى الكنزة وأعادها إلى الكيس، ثم نهد وصعد إلى المقعد مجدداً. وقال برضى:

- أوه.. يا إلهي، كم أنا جائع! ألا تعتقدين أنني انتظرت كفاية آنتي سالي؟

ارتفعت بسمة إلى شفتها دون إرادة منها، حملت معها بريقاً مشعاً إلى عينيها..

- أجل تيم، لقد انتظرت بصبر فعلاً.

ضحك:

- تقول مامي إنني لا أبقى هادئاً للحظة واحدة!

نظرت سالي إلى غافن، ولاحظت النظرة الغريبة التي كان يرمقها باتجاه الصبي.. ثم تحولت عيناه إلى وجهها، ليتفحصه بتدقيق شديد، حتى أنها أشاحت بوجهها عنه.

وصل الساقي فشعرت بالراحة. قدم طلبها وطلب غافن معاً.. وقبل أن تتمكن من الوصول إلى حقيبتها كان غافن قد دفع الحساب.. وسمعت نفسها تتمتم:

- شكراً لك سيد هنتلي.

ثم شغلت نفسها بصب الشاي.. طوال الوقت، كانت تشعر بعيني غافن مركزتين عليها، وقالت للصبي:

- يجب أن نسرع.. لقد أطلنا المكوث هنا.

ـ أوكي.. لكن مامي ذهبت إلى ذلك المكان مع ذلك السيد، ولا يمكن أن تكون قد عادت إلى البيت بعد! سأسرع مع ذلك إذا أردت مني هذا!

قال غافن بهدوء وكأنه يستطفها، وهو ينظر إلى تيم، الذي تغطي فمه وبعض وجهه الكريما:

ـ أي نوع من التصرف هذا؟

ردت بحذر:

ـ لست أدري.

مدت يدها لتأخذ السكر، فلوى غافن فمه:

ـ أنت مولعة بهذا الولد.

ـ أجل. هذا صحيح.

ـ قبل لي إنك تأخذينه دائماً.

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ لست منعزلاً عن الناس تماماً، سيدة والينغ.

كانت سخريته مبطنة، ولكنها شعرت بها بوضوح فنظرت إليه، وشاهدت خط فكه الصلب، والفم الرفيع القاسي، والذقن المندفع البروز، وتساءلت كيف يمكن أن يكون صبوراً متساهلاً مع الصبي؟ لم يظهر حتى الآن أي دليل عن عدم موافقته على أي شيء فعله أو قاله تيم.. فلربما كان أحد الناس النادرين الذين يفهمون تصرفات الأطفال.

قال الصبي فجأة:

ـ أيمكن أن أحصل على المزيد من الحليب في الشاي، أرجوك؟

مدّ غافن يده ليصب له الحليب.. ثم قال لسالي:

ـ أنت تصرفين الوقت والمال عليه.

ـ أمه معتادة على الخروج بعد ظهر أيام السبت، فآخذه. ولا يشكل الأمر لي مشكلة.. بل يسليني.

ـ من الأفضل لك أن تكوني مع ولد لك.

مد يده إلى فنجانه وارتشف منه، فردت:

ـ أنا مكتفية بالأمور كما هي.

نظر إليها غافن بصدق، وقال بنعومة:

ـ أنت تكذبين.. لا شيء يعطيك الرضى أكثر من طفل.. أو أطفال.. تلدينهم.. الأمومة هي قدر المرأة، إنجازها الحقيقي المكتمل.

مع أن احمرارها ازداد لسماعها هذه الكلمات إلا أنها قالت:

ـ على المرأة أن تلتقي بالحب قبل أن تكتفي.. معظم الرجال لا يفهمون هذا. أن يكون لها زوج محب، وأطفال، هو أقصى طموحاتها حقاً.. فالعديد من النساء محظوظات لحصولهن على هذه الدرجة من السعادة.

وتهدج صوتها.. لكن غافن لم يتأثر بما ظهر فيه من ألم.

ـ إذا كانت المرأة لا تستطيع الحصول على الحب والأطفال معاً.. فما الذي يبقى دون أي منهما؟

نظرت إليه، محتارة كيف أنهما يتحدثان مع بعضهما بهذه الطريقة:

ـ كان لي الحب.. وكان يمكن أن يكون لي أطفال لو بقي كولن حياً.

فكرت أنه اللورد المالك للمزرعة كلها، وكان زوجها يعمل لديه أما هي فمجرد فتاة دون خلفية اجتماعية، لا ثراء ولا استقرار. رد عليها بهدوء:

ـ يمكن أن يكون لك أولاد.. واضح أنك تحبين هذا الصبي، وبالطبع ستحبين أولادك أكثر منه؟ أنت مختلفة اليوم، لأنك معه، تفعلين له أشياء يرغبها، وصرفت عليه الكثير من المال لشراء الثياب، وواضح كذلك أنك تتمتعين بهذا.. تفكيرك ابتعد عن الحزن، لأن لديك من تفكرين به.

أخفضت عينيها أمام تحدي عينيه.. لقد تفوه بالحقيقة.. فتفكيرها ابتعد فعلاً عن الحزن. لكنها قالت تدافع عن رأيها:

ـ إذا كنت تشير إلى اقتراحك سيد هنتلي، أرجوك أن تنساه.. لا

www.liilas.com

أستطيع الزواج دون حب.

ـ لكنك قلت إنك لن تحبي مرة أخرى.

ـ هذا صحيح.. لا أستطيع!

ـ هذا قول مناف للعقل، وهو نتيجة الحالة التي تعيشينها.. على أي حال، إذا كنت واثقة أنك لن تحبي مرة أخرى، فلماذا لا تقبلين الخيار التالي؟ خذي ما يمكن للحياة أن تقدمه لك. ستكونين أماً رائعة، فلماذا لا تعطين الحياة لأطفال محظوظين؟

كان سؤالاً لا ينتظر جواباً فأدارت وجهها عنه، محرجة وخائفة.. إنه فائق السلطة، هذا الرجل الذي تجري في عروقه دماء الوثنيين والبرابرة. إنه يمتلك جاذبية قوية تجذبها بطريقة ما، وتبقيها في حالة الدفاع طوال الوقت.. لقد أحست بهذا منذ أول أمسية تقدم باقتراحه لها.. وها هي تشعر بهذا مجدداً.. إنذار داخلي يحثها على الابتعاد عن تأثيره، وترك المنزل الذي تشغله ما دامت أمامها فرصة للهرب.

الهرب.. من ماذا؟ لا يمكنه إجبارها على الزواج منه، وإنجاب أطفال له.. أسوأ ما يمكنه أن يفعل هو طردها من منزلها، وأن يقول لها إن البيت الريفي مطلوب لسكن عماله.

أنهى تيم قطعة الكايك، وطلب أخرى، فردت عليه:

ـ لا يا عزيزي..

لكن غافن قاطعها:

ـ إذا كان يستطيع أكلها، فدعيني أطلبها له.. لكن إذا كان هذا يكفيه، حسب رأيك، فلن يحصل على واحدة أخرى.

رفع تيم وجهه وفي عينيه توسل واضح:

ـ لم أحصل على ما يكفي سيد هنتلي.. وأود الحصول على قطعة أخرى.. أرجوك.

ضحكت سالي، فنظر غافن إليها وهز رأسه وكأن صبره نفد معها. لقد شاهدها تضحك ويتساءل لماذا تصر على البقاء حزينة ووحيدة. لم

تكن قادرة على التفسير.. وقالت:

ـ أنا لا أمانع أن يحصل على قطعة أخرى سيد هنتلي. انها معاملة خاصة له، ولا يجب أن أفسدها عليه.

قال غافن بصوت ناعم فشلت خشونة طباعه في أن تخفيه:

ـ وأنت، أكانت هذه مناسبة خاصة لك أيضاً؟

ـ أجل سيد هنتلي.. إنها كذلك!

بدا وكأنه يبتسم في سره.. وكأنه حقق نصراً من نوع ما. رفع يده يستدعي الساقي.. فسارع تيم يقول:

ـ أيمكن أن أحصل على قطعتين.. أرجوك؟

ـ بل واحدة.. وابريق شاي لاثنين.. أتود شراباً آخر؟

ـ أجل.. أرجوك.. أرغب في العصير.

التفت غافن إلى الساقي.

ـ وكوب عصير برتقال.

قالت سالي بأدب:

ـ أنت لطيف جداً.. سيد هنتلي.

لكنها كانت تعلم أنه لم يكن لطيفاً، بل ماكراً يأمل مما يفعله أن يحصل على شيء ما: الزواج! أذهل سالي أنها توصلت إلى استنتاج سهل بأنه يحاول كسب ودها بطريقة تفكيره.

نقل غافن اهتمامه من الصبي إليها:

ـ أمامك مشكلة سيدة والينغ، ولدي الحل لها.. لو أنك فكرت بمنطق لوجدت عرضي جيداً.. فالحاضر سيمر، دون شك.. وسيبقى لك المستقبل تتمتعين به.. وبعد سنتين من الآن ستكونين أماً فخورة وسعيدة، لولد صغير يشبه تيم، وربما طفل آخر في الطريق..

قاطعته والاحمرار يتزايد في وجهها:

ـ أرجوك! لقد أعطيتك ردي سيد هنتلي. فكيف يمكنني أن أتزوجك بمشاعري الحاضرة؟

لم تر أي تغيير في تعابير وجهه، حتى صمته كان قناعاً لمشاعره..
وارتفعت نظرتها لتلتقي بنظرته المتفهمة، ثم حرك جسده جانباً، ليسمح للساقي أن يضع وعاء الشاي وإبريق الحليب. ودون أن يسألها سكب لها فنجاناً ووضع فيه الحليب. وهذه بالتأكيد ليست طريقته العادية في التعامل مع النساء.

قضم تيم قضمة كبيرة من قطعة الحلوى أمامه فقالت له:

ـ كان يجب أن تنتظر إلى أن أقطعها لك!

لكنه ضحك، وقضم قضمة أخرى.. وأدهشها غافن مرة أخرى بمسحه الكريم عن أنف الصبي.. هل كل هذا مجرد تمثيل؟ أم أنها الطريقة الأكثر سهولة لتبديه كرجل عائلة؟ نظرت حولها لتلاحظ أن الناس ينظرون إليهم بين حين وآخر.. فتيم كان موضع اجتذاب واهتمام الآخرين بشعره الذهبي، ووجهه السمين، وعينيه الضخمتين.. فكرت سالي نحن نبدو كعائلة، ولا بد أن الناس هنا يعتقدون أننا عائلة.

أمر غريب.. لكن الفكرة جعلتها أقل قلقاً، وأقل خجلاً مع غافن..

حتى الآن كانت تتصرف بكل احترام وتقدير نحوه. تعي طوال الوقت مركزه المتفوق، وواقع أنها تعيش على كرمه في بيته. لكنها الآن تراه بمنظار مختلف، لتكتشف ميزات، إنسانية فيه، جعلتها تنسى أصله المتوحش الوثني.. حتى مظهره بدا متغيراً بطريقة لم تستطع تحديدها.. ربما هاتين العينين الرخاميتين قد أصبحتا أكثر رقة.. وهاتين الشفتين الرقيقتين، أصبحتا أقل قساوة.

ارتفع نظره إلى وجهها، وشعرها اللماع، طويل حريري، مع خصلة صغيرة منهدلة على جبينها:

ـ أنت هادئة جداً.. سيدة والبنغ.

قالت وكأنها تتمتم:

ـ كنت أفكر.

ـ بماذا؟

تساءلت ماذا قد يظن بها لو قالت له الحقيقة. لكنها هزت كتفيها وقالت:

ـ ليس شيء بذات أهمية.

نظرت إلى ساعتها وتابعت:

ـ أظن أن علينا المغادرة، فالظلام قد أرخى سدوله حين دخلنا إلى هنا.

قال تيم:

ـ لا أريد العودة الآن.. المكان جميل هنا آنتي سالي.. أحب أن أبقى معك ومع السيد هنتلي.

ابتسمت له والتقطت معطفه:

ـ هيا بنا عزيزي.. دعني ألبسك هذا.

ـ حسن جداً.. سيد هنتلي، أيمكن أن نذهب إلى قصرك ونتفرج على البنادق القديمة؟ قال لي جدي إن هناك الكثير منها في منزلك.

ـ أتود رؤيتها اليوم؟

أحست سالي بأعصابها تشتد.. ونزل تيم عن مقعده صائحاً:

ـ أووه.. أجل! سيذهل جدي حين أقول له إنني كنت في قصرك الكبير!

وقفت سالي:

ـ أظن تيم، أن أمك ستقلق لو تأخرنا كثيراً

التفتت إلى غافن:

ـ إذا كنت لا تمانع..

لكن غافن قاطعها:

ـ ستخيبين أمل الصبي سيدة والبنغ؟

رفع الصبي عينيه بتقلهما من سالي إليه:

ـ قد لا تكون أمي وصلت إلى البيت بعد..! أريد رؤية البنادق، أرجوك.

أحست بأن مقاومتها قد ضعفت. وكالسابق لم تكن راغبة في الذهاب إلى القصر.. لكن يبدو أنها مضطرة لذلك، وإلا انتهى الأمر بتيم إلى البقاء.. هل كان غافن يهتم فعلاً بخيبة أمل الصبي أم أنه اخترع هذا الموقف على أمل تحقيق هدفه.

قادت سيارتها خلف سيارته عبر شوارع البلدة المضاءة، بواجهات محالها المزينة، وزحام سيرها وأناسها. وصلا إلى المناطق الريفية بينما كان الظلام يزداد انتشاراً، والضباب الرمادي يهبط فوق الأراضي التي تحيط بالتلال والمراعي، التي تنحدر تدريجياً إلى شاطىء مهجور. كان السكوت مطبقاً، وكأنما العالم بعيد ملايين الأميال..

وأخيراً، وصلا إلى الأبواب المرتفعة المحفوفة بالأبراج وأشجار الزان القديمة.. بعيداً إلى الغرب، في واحد من التلال المرتفعة، كانت كتلة صغيرة من الثلج تبدو فوق الصخور البركانية الضخمة.. غامضة وغير مفهومة.. وكأنها بداية الزمان..

أوقف غافن سيارته في الباحة المليئة بالأضواء، وكان يخرج من أمام المقود حين وصلت سيارة سالي لتقف بقربه.. خرجت، بوجهها الجميل وشعرها الذهبي كهالة من نور حوله. وقف غافن قبالتها ينظر إليها، جسده الفارع الطول يسبب لها التوتر، وهبت الريح بشعرها، فرفعت يدها لتزيل عدة خصل عن وجهها.. فقال لها بلهجة عملية:

ـ يجب أن تضعي شيئاً على رأسك.

نزل تيم بدوره ووضع يده بيد سالي:

ـ ألن نشاهد البنادق الآن.. سيد هنتلي؟

نظر إليه دون ابتسام:

ـ طبعاً.

قالت سالي بصوت مرتجف:

ـ لا يمكننا البقاء طويلاً.. ستقلق ماريا علينا.

رد غافن بدون اكتراث:

ـ ستعرف أن ابنها على خير ما يرام معك. هيا بني.. ستتفرج على البنادق الآن.

دخلوا القاعة الكبرى.. للحظات نسيت سالي توترها وهي تتطلع إلى تيم الذي يبدو صغيراً جداً في هذا المكان الواسع، المدعّم بسلسلة من القناطر.. إنه مخزن ضخم للأسلحة والدروع، وأهم معدات الفروسية، والتي كانت في يوم من الأيام بحجم الحياة نفسها، كان هناك تمثال بالحجم الطبيعي لأحد أسلافه مدججاً بسلاحه ودروعه الكاملة بحمل الشعار الخاص به.

بكل طواعية ترك الصبي لغافن مهمة القيادة، حيث يتركه أحياناً ليلامس درعاً، أو سترة حديدية لامعة.. كانت عيناه متسعتان بالدهشة والارتباك، وابتسامة طفل سعيد ترتسم على شفتيه. ووقف كلاهما يراقبانه بصمت وتفكير.. كانت سالي تحس بوجود جاذبية قوية لغافن، وتمي مرة أخرى ذلك الإحساس المخيف، بأنها تقاد في طريق لا تريد سلوكه.. هل السبب هو هذا القصر بتاريخه العنيف، وأشباحه، وأسراره العميقة، التي تبدو مسيطرة عليها من كل النواحي، وتقفل بوجهها كل الأبواب التي قد تقودها إلى العصرية؟ وهذا المالك.. الطويل العملاق، وملامحه القاسية.. هو الرجل الذي يريد الزواج بها!

التفت غافن ليقول بصوته الأجش الذي أصبح مألوفاً لديها:

ـ يبدو منذهلاً بما يرى.. وصغير جداً ليفهم.

هزت رأسها، يائسة لتسيطر على شدة خفقان قلبها.

ـ هل فكرت جيداً بعرضي؟

أحست وكأن كل شيء بداخلها قد تقلص، وكأنه يتكتل لحمايتها ضد.. ضد ماذا؟

ـ لا.. سيد هنتلي.. لم أفكر بعد.. لأنني ظننت أنني أوضحت لك أنني لن أتزوج ثانية.

عبس بتوتر لم يحاول إخفاءه واتجهت عيناه متعمداً إلى الصبي،

وقال:

- أظن أنك ستغيرين رأيك قريباً.

بسرعة وارتباك ردت:

- لا.. لا! يجب أن نذهب.. تيم تعال عزيزي حان الوقت لنذهب.

- أوه.. لكن..

- تيم.. تعال.

تابعت عيا خافن تيم وهو يقترب بكل خضوع من سالي.. ويسأل

- أيمكن أن نأتي مرة أخرى.. أنتي سالي؟

هزت رأسها نفياً ودون تردد، وأجابت بسرعة وحدة منوترة من نظرة خافن الحارقة إليها:

- لا تستطيع تيموثي.. والآن تعال.. لقد تجاوز الوقت وقت عشائك بكثير.

• • •

٣ - الماضي يتحطم

كانت ماريا لا تزال خارجاً حين أوصلت سالي الصبي إلى البيت، لكن جدة كان هناك يقف عند المغسلة يغسل قميصه.

- آه.. ها أنتما.

ترك ما كان يفعله، وتقدم ليرفع صغيره عالياً فوق رأسه:

- عرفت أنه معك سالي.. أكنتما تتمشيان؟

تلاشى صوت السيد اندرسلي وهو ينزل الطفل وانصبت عيناه على الأكياس التي تحملها سالي تحت ذراعها.. وأخبره تيم بغبطة:

- كنا نتبضع يا جدي! لدي الآن ملابس كثيرة وحذاء، وذهبنا نتفرج على الأسلحة التي يملكها السيد هتلي في قصره الكبير!

- صحيح..؟

نظر العجوز مشتاقاً إلى سالي.. ثم تذكر أنه لم يرحب بها بعد، فطلب منها الدخول إلى المطبخ الصغير وقدم لها كرسياً لتجلس

- أصحيح أنكما ذهبتما إلى القصر؟

هزت رأسها:

- قابلنا السيد هتلي في البلدة و..

قاطعها تيم:

- في المقهى حيث تناولنا الشاي.

أخذ الأكياس منها ووضعها على الطاولة، وأكمل وهو يفتحها

- كان مقهى كبيراً فيه مقاعد جميلة! وتناولت قطعتين من الكايك بالكريما، وفنجان شاي، وعصير البرتقال.. طلبها لي السيد هتلي من رجل يرندي معطفاً أبيضاً.. ثم قلت أيمكن أن أرى الأسلحة التي لديك سيد هتلي، فقال هل أريد رؤيتها اليوم فأجبت بنعم.. وقال.. أوه.. يا

www.liilas.com

إلهي! لا أستطيع إخراج حذائي الجديد من العلبة!

ـ دعني أفعل هذا عنك.

قطعت سالي الرباط بسكين كانت على الطاولة، ثم أعادت له العلبة، فأزال اللفافة الورقية عنها وفتح الغطاء، كان السيد أندرسلي يقف جامداً، وتعبير غريب يرتسم على وجهه المغضن.. فبدا أكبر سناً من عمره الحقيقي.. لكن حياته كانت صعبة. فقد ماتت زوجته وماريا لا تزال في الخامسة من عمرها.. ولديه الآن تيم ليفكر به، إضافة إلى ابنته، فهو بحمل لإعالتهما معاً.

ـ أنت طيبة جداً سالي..

اختنق صوته قليلاً وهو يقول هذا، ثم أكمل:

ـ ماريا لا تهتم لهذه الأشياء التي تشترينها له.. قلت لها إنك ستلاحقلين.. لكن.. إنها لا تعطي حياة سعيدة.. لذلك لا أتذمر كثيراً.

لم تعلق سالي، بل تساءلت ما إذا كانت ماريا فعلاً مع ذلك الشاب، بعد ظهر اليوم، وما إذا كانت تخرج معه باستمرار.. أخرج الصبي فردة حذاء، من الجلد البني وصاح:

ـ أنظر! إنها تناسبني.. لكنها كبيرة قليلاً!

ضحكت سالي والجد معاً، وقال السيد اندرسلي:

ـ لا بد أنك تكلفت الكثير من المال.

ـ ليس لدي ما أصرف مالي عليه سيد اندرسلي.

ـ سيكون لك يوماً.. يا ابنتي.

هزت رأسها متأثرة:

ـ أعرف بماذا تفكر سيد اندرسلي.. ولكنك مخطىء.. فليس لدي أي خطة مستقبلية.

ـ عطلة هادئة ستفيدك.. شقيقة زوجتي الراحلة كانت في اليونان، في رودس، وكتبت لي لتخبرني كم تمتعت هناك..

مد يده ليأخذ الرسالة عن الرف:

ـ خذي.. اقرئيها بينما أصنع الشاي.

لم تكن سالي تريد الشاي، لكنها عرفت أنه راغب في كوب منه، فجلست تقرأ الرسالة، وكانت مليئة بالأخبار المفرحة، تحدثت عن الجزيرة والرحلات التي قامت بها، ثم ذكرت جزيرة «كوس» مما أثار اهتمام سالي، لأنها ككل سكان المنطقة تعرف أن غافن هو حفيد صاحب البواخر المليونير الذي يعيش هناك. وأنهت الرسالة بقولها «سأتي لقضاء بضعة أيام معك روبرت.. صحيح أنني فكرت باقتراحك، ومع كل احترامي لابنتك ماريا، لا أستطيع العيش معها في ذات المكان. لقد كانت مميزة جداً.. ولكن منذ طلاقها وولادة تيموثي، تغيرت الأمور.. صحيح أنها لم تكن تحب والده، ولكن من المؤسف أنها تطلقت.. ولو تزوجت ثانية، قد أفكر جدياً بالزواج منك روبرت.. لك كل الحب مني وإلى الجميع».

وضعت سالي الرسالة على الطاولة.. إذاً ماريا لم تكن تحب زوجها السابق والد تيم.. مع ذلك أنجبت منه الطفل.. طفل أحبته بالرغم من أنها تهمله أحياناً.. وكان من المحتم أن تندفع أفكارها إلى غافن هنتلي، وتأكيده لها أنها قادرة على إنجاب طفل لتصبح سعيدة..

سكب السيد اندرسلي الماء المغلي في إبريق الشاي، ووقف وإبريق الماء في يده، وعيناه الرماديتان تبتسمان لسالي:

ـ أظنك دهشت لطلبي الزواج من تينا؟ سيحل زواجنا الكثير من المشاكل، لو جاءت تينا لتعيش معنا.. فهي تعاني أوقاتاً صعبة من الوحدة في الوقت الحاضر.

التقط إبريق الشاي، ثم أكمل:

ـ لا شك أنك سمعت أن امرأتين لا تتوافقان في منزل واحد. كل منهما تريد أن تكون المسؤولة والمسيطرة.

هزت سالي رأسها:

ـ لن أرغب في مشاركة أحد في بيتي.

وتذكرت تلك الأيام السعيدة المثالية التي تشاركت فيها الحياة مع زوجها فأكملت:

- أعني امرأة أخرى بالطبع..

- لا.. لا أظن هذا..

تدخل تيم:

- انظر جدي! حذائي الآخر!

- أجل.. إنه جميل أليس كذلك؟

- ولدي بدلة جديدة بأزرار لمّاعة، سأخرجها لك من الكيس.

- لست أدري كيف أشكرك سالي.

وأخذ يصب الشاي:

- لا حاجة لشكري سيد اندرسلي.. فأنا أفرح كثيراً عندما أشتري له.

فكرت بما جرى بعد الظهر، وبالخوف الذي تملكها وهي تقف في القاعة الكبرى في ذلك القصر.

كانا يشربان الشاي عند وصول ماريا.. فاحتوت عيناها كل شيء في الحال. الشاي الساخن في أفضل فناجين، القشريس في المغسلة، الكنزتين اللتين أخرجهما تيموثي من الأكياس، ووضعهما على الكرسي، والحذاء في علبه على الأرض.. بدا أنها عبست في البداية، ثم تنهدت، وحيت سالي بابتسامة باردة، لتشكرها على ما اشترته لابنها. ثم دخلت إلى غرفة الجلوس، فصاح تيموثي:

- لقد شاهدناك مامي! كنت مع سيد!

شحب وجه السيد اندرسلي، واضح أنه لا يريد أن يكون لابنته صديق.. لكن سالي تعتقد أنه من الأفضل لها أن يكون لها صديق، وأن تتزوج ثانية. فيصبح الجميع سعداء.. وسألها:

- من هو ماريا؟

- سأخبرك بأمره فيما بعد أبي.

أكملت سالي شرب الشاي، ووقفت:

- يجب أن أذهب. شكراً للشاي سيد اندرسلي.

- وشكراً لك يا ابنتي! أحس أننا لن نفي دينك أبداً.

- أفعل هذا لأنني أرغب به.. فلذلك لست مديناً لي بشيء.

نظرت ماريا إلى أبيها بعجرفة:

- بالطبع لن نكون مدينين لها.. فكما تقول: إنها تشتري هذه الحاجات له لأنها تسعد بذلك.. فلماذا يجب أن نحس بالجميل؟

صاح بها أبيها موبخاً:

- ماريا.. هذه ليست طريقة مؤدبة للتحدث إلى سالي.

هزت ماريا كتفيها دونما اكتراث، بينما تركتهما سالي والحيرة لا زالت تكتنفها، قبلت تيم وأقفلت الباب ورائها.

دخلت بيتها وأضاءت على الفور عدة مصابيح.. فالظلام أمر لم تعد تتحمله منذ وفاة زوجها.. وغرقت في خضم تفكيرها القلق.. كانت محتارة بتصرفات ماريا وعدائيتها غير المنتظرة نحوها.. هذا عدا توترها من ثقة غافن هتلي بنفسه.. وكأنه يمارس عليها لذة الانتظار ليوصلها إلى نقطة الاستسلام.

ماذا ستطهو لتفسها الآن؟ قد يكون طهو الدجاج أكثر سهولة.. وهي اعتادت مع كولن على طريقة خاصة لطهيه..

أخرجته من البراد، وجمعت أغراض الصلصة وأشعلت الفرن حتى الدرجة المناسبة.. وأحضرت وعاء الطبخ.. انقطعت أفكارها لرنين جرس الباب.. فتوجهت عبر الرواق الصغير لتفتحه.

- ماريا.. هل أصيب تيم بشيء؟

هزت كتفيها:

- تيم، أهذا أول ما يتبادر إلى تفكيرك؟

ابتعدت سالي عن الباب لتدخل ماريا.. ثم أقفلت الباب وراءها. تحركت ماريا دون دعوة إلى غرفة الجلوس حيث كانت المدفأة الكهربائية تعمل، وتعطي الدفء المريح للغرفة.. أضاءت سالي المصباح، ودعت

ماريا إلى الجلوس لكنها هزت رأسها وبقيت واقفة تدير ظهرها للنافذة.

كررت سالي بحيرة:

ـ أرجوك اجلسي ماريا.

ـ أشعر أن عليك أنت أن تجلسي، أما أنا، فأفضل أن أبقى واقفة..

استدارت وكأنها لم تعد قادرة على النظر إلى سالي.

ـ ما بك ماريا؟ تتصرفين بغرابة اليوم..

ـ آسفة على فظاظتي.. لم أكن متمالكة نفسي.. كان هناك ما يشغل تفكيري.. وما زلت.. لكنني أرجو أن أسوي أمراً أو أمرين.. أنت تحبين تيم.. أليس كذلك؟

ـ أفكر به كثيراً.. أجل.. بالطبع أحبه.

ـ ألأنه يشبه كولن؟

ابتلعت سالي ريقها.. لطالما كرهت أن يتحدث أحد عن زوجها المتوفي.. واعترفت:

ـ جزئياً.. أجل.. لكن تيم طفل يحبه الجميع.

هزت ماريا رأسها، وتمتمت بهدوء:

ـ وأنا أحبه.

ـ أتوقع منك هذا.

ـ لكنك تشعرين أنني لا أعامله بطريقة جيدة.. صحيح؟ أوه.. لا تفكري هكذا سالي.. أنا أعي تماماً ما يظنه الناس بي.. إنهم لا يعرفون كل شيء.. فليس من السهل أن يكون لك طفل دون أب يرعاه. فهذا أمر يشعر المرأة بالعجز، ويفقدها حريتها.. أنا أخرج أيام السبت.. ولكن الإشاعات تقول إن علي أن لا أفعل..

قاطعتها سالي بلطف وهدوء:

ـ ماريا.. إلى ماذا يقود كل هذا الحديث؟

ـ لا بد أنك تقولين لنفسك إنني لم أكن يوماً من النوع الذي يفضي بأسراره لأحد.. وهكذا ما الذي أقصده من كل هذا؟ حسناً.. لقد التقيت

شخصاً يريد الزواج مني.. ذلك الرجل الذي ذكره تيم منذ برهة. أنا أخرج معه بعد ظهر أيام السبت منذ بضعة أسابيع. إنه يعمل ليلاً.. لذلك لا أستطيع رؤيته في المساء، حتى لو تمكنت من الخروج.. أنا لا أحاول كتم خروجي معه ولو لم أخبر أحداً كذلك.. حتى أبي.. كان جن من قلقه عليّ.. سيتوقع أن أتزوج وأنطلق ثانية وأرهقه بطفل جديد.. لكن لدي الآن عقل أرجح من هذا.

قاطعتها سالي:

ـ ماريا.. لماذا تخبرينني بكل هذا؟ أنت تسيئين الإحراج لنا معاً.

ـ لكنني لست محرجة، ولا أرى سبباً لأن تحرجي. على أي حال، يجب أن تسمعي ما سأقول.. وأنصحك بالجلوس ثانية.

بدت الحيرة على وجه سالي.. وتابعت ماريا:

ـ صديقي الشاب، لا يعرف بوجود تيم.. والحقيقة أنني أخاف أن أخبره.. ظننت في البداية أنني سأتمكن من ذلك، لكن ونحن نتحدث، ونتناقش الأمور، ونتعارف، سرعان ما أدركت أنه يريد فتاة لا روابط لها.

أحست سالي بالغضب من هذا الشاب وقالت ساخطة:

ـ أنت فتاة شريفة ماريا! وإذا لم يقبل بتيم فهو لا يستحقك ولا يحبك!

التوت شفتا ماريا الجميلتين بسخرية:

ـ شكراً لهذه الكلمات المؤثرة سالي!

ـ إنني أعنيها بالكامل.. لولا أنك شريفة لما كنت تهتمين لأمر ابنك.

هزت ماريا رأسها، وأكملت قصتها:

ـ قابلت دان في البينغو.. تحدثنا واكتشفنا أننا نذهب إلى هناك بسبب الملل والوحدة. فدان ليس من النوع الاجتماعي.. إنه خجول ولا يصادق أحداً بسهولة.. وهو سعيد جداً لأنني أحبه. نحن نحتاج إلى بعضنا، ولا أستطيع أن أخسره بسبب تيم.

انعقدت الدهشة في رأس سالي، لكنها انتظرت غير مصدقة ومتوترة لتكمل ماريا كلامها، لكنها لم تقل ما كانت تتوقعه سالي. بل استمرت

صامتة طويلاً، ظهرها نحو سالي تحدق خارج النافذة، إلى عتمة ليل الشتاء.

وانتظرت سالي بدورها، مع تعاظم توترها أن تلتفت ماريا وتتابع كلامها.. لكن الصمت طال، فجلست سالي على الأريكة.. أخيراً قطعت الصمت:

- ما الأمر ماريا؟ ظننتك منذ لحظات ستطلبين مني أن آخذ تيم.. وإلى متى لست أدري.. أما الآن فأشعر أن هناك أكثر من هذا..

صمتت سالي فاستدارت ماريا إليها، ولاحظت التجهم على وجهها، واشتداد ضغطها على شفتيها وبديها.. ونظرت إلى المقعد وكأنها ترغب في الجلوس:

- أظنني، وأنا مضطرة الآن لمواجهة الأمر.. أحاول تجنبه.

- تتجنبينه؟

هزت ماريا رأسها موافقة.. وبدا واضحاً أنها زادت تصميماً.

- هل فكرت يوماً لماذا يشبه تيم كولن كثيراً؟

تجنبت عينا سالي وهي تجلس بعد أن خلعت معطفها ووضعته على ظهر الكرسي.

- أتساءل لماذا.. أتقولين.. أتقولين إن..

تلاشى صوتها، وغادر اللون وجهها تماماً وأحست بغصة في حلقها..

رفعت ماريا رأسها، وفي عينيها نظرة قاسية مصممة على المضي فيما بدأت:

- زوجك هو والد تيم.

انطلق احتجاج مرتجف من شفتي سالي:

- لا.. لا أستطيع.. أن أصدق.

- لا تصدقين سالي؟ لكنها الحقيقة.

- أجل.. هذا صحيح إنها الحقيقة وأستطيع فهم هذا الآن.

وجه كولن ووجه ماريا امتزجا معاً، كوجه واحد، في تفكيرها.. الشعر الأشقر، البشرة، العينين، الأنف المستقيم، والقسمات المستديرة السمينة.

- لماذا أبقيت هذا سراً حتى هذا الوقت، ولماذا لم يتزوجك؟

- لأنني لم أحبه.

- متى حدث هذا؟

- سأبدأ منذ البداية.

تراجعت ماريا في مقعدها لتستقر بارتياح:

- اصغ إلي يهدوء سالي، واسألي ما تشائين حين أنتهي.

هزت سالي رأسها، أحاسيسها صماء إلى درجة أن الألم والإفاقة من هذا الكابوس، لن يؤثرا عليها.

- لم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة حين التقيت كولن ووقعنا في حب مجنون، أو هكذا خيل لنا.. لمدة أشهر كل ما بيننا كان مثالياً، عشنا في جنة خاصة بنا.. كنت قد تركت منزل أبي قبل سنة لأعيش وحدي في شقة لطيفة في «ريدجواي» على بعد عشرة أميال من هنا.. وكان لي كذلك وظيفة سهلة كموظفة استقبال عند مصور محترف. وهو من قدمني إلى كولن، الذي كان صديقه، زاره يوماً في الأستديو. ولم يمض أ. وعين حتى انتقل كولن من مسكنه غير المريح إلى شقتي.. بعد فترة أدرك كلانا أن ما نمر به هو فترة جميلة لا يمكن أن تكون دائمة، فلم يكن لدينا شيء يدعم ذلك الانجذاب.. وقررنا أن المضي في علاقتنا أمر لا طائل من وراءه.. فلا نية لنا بالزواج. وهكذا افترقنا كأفضل صديقين، مع الندم والألم من كلينا. مضت سنة لم نرَ بعضنا فيها.. ثم التقينا صدفة، في محطة القطارات، وقال لي إنه قابل مؤخراً فتاة أعجبته كثيراً.. لكنه لم يخرج معها بعد أكثر من مرتين.. تودعنا ثانية، لكن، كان مقدراً لنا اللقاء وقبل انقضاء أسبوع، التقينا في مقهى وتناولنا الغداء معاً، كان معه تذكرتان لحفلة راقصة للسبت التالي، وقال إن صديقته الجديدة أصيبت

بالزكام ولا تستطيع الذهاب معه.

صمتت ماريا لإدراكها أن سالي كانت تتذكر تلك المناسبة.. ثم أكملت:

ـ طلب مني الذهاب معه، فقبلت الدعوة.. ولم تنتهِ الحفلة حتى الثانية صباحاً، أوصلني كولن بعدها إلى البيت فدعوته للدخول.

صمتت ثانية تهز كتفيها:

ـ لم يبدُ لي هذا أمراً خاطئاً.. فلقد كان لنا علاقة سابقة. وبعد شهرين عرفت أني حامل فكتبت له، مع أنني لم أكن أنوي الزواج به.. لكنني أعتقد أني أحسست بالضياع والخوف. لكنه كان يحبك أنت، ويجنون. وزواجكما أصبح قريباً.. فاقترح عليّ الخلاص من الطفل. لكنني لم أستطع.. أردت الطفل بالرغم من توقعي لصعوبات مخيفة أمامي، قبل كل شيء سأضطر للعودة إلى أبي، لأحمله عبئي وعبء الطفل.. لقد ربياني لوحده منذ كنت صغيرة، ومن العار أن أتوقع منه تحملي وطفلي في وقت بدأ يشعر بسهولة الحياة.. قلت لكولن إنني أريد الطفل، وتأثر جداً بتراجعي.. وكان من غير المنطقي أن أرفض الزواج منه، لكنني لم أعد أحبه أكثر مما يحبني..

قاطعتها سالي ووجهها شاحب كوجوه الموتى تنظر إليها:

ـ وهل عرض عليك الزواج؟

ـ أجل سالي.. لقد فعل.

ـ لكننا كنا مخطوبين...

كان صوتها همساً.. والكلمات لم تكن تتعدى سماع ماريا.. لكنها سمعتها، وتابعت كلامها بقسوة جعلت سالي تجفل ألماً:

ـ أجل.. كنتما مخطوبين.. لكنه كان مستعداً أن يتركك حتى وأنتما أمام المذبح، لو وافقت على الزواج منه. كان رجلاً شريفاً أكد لي أن واجبه الأول هو نحوي. وهكذا ترين سالي، لو قبلت عرضه لما تزوجت منه.. ولما كنت الآن تسمحين لذكراه أن تسليك الحياة.

تبع هذا الاعتراف صمت عميق رهيب.. وأخذت أفكار سالي تتجه إلى خائن هتلي وتأكيده لها أنها تضيع حياتها سدى لأجل طيف. وامتلأت عيناها بالدموع وقالت:

ـ أتمنى.. لو أنك قبلت.

من خلال ارتباك تفكيرها، برز واقع ساخر بأن ماريا كان بإمكانها العيش دون الطفل، بينما هي سالي، كانت ستحب أن يكون لها.. ردة فعلها كانت الألم على زوجها وليس الغضب.. علاقته بماريا، وقد حدثت قبل لقاءه بها، لا شأن لها بها.. ولا تستطيع كذلك إدانته على الليلة التي قضاها مع ماريا، فهما في ذلك الوقت كانا قد التقيا حديثاً، وواضح أنه لم يكن يفكر بالزواج منها. قالت سالي، بعد محاولة أخرى لترتيب الأمور في ذهنها المرتبك:

ـ ما لا أفهمه في كل هذا.. كيف جئتما إلى هنا، وقريباً من مكان سكنك؟

هزت ماريا رأسها متفهمة:

ـ لا بد أنك توقعت من كولن الابتعاد عني قدر الإمكان؟ حسناً.. ما حدث أنه لم يكن يعرف أين كنت أسكن قبل أن أستأجر تلك الشقة ولا يعرف أين يعيش أبي كذلك لأنني لم أذكر ذلك أمامه. ولا هو أظهر فضولاً.

صمتت تبتسم، عيناها تحدقان بعيداً، وأكملت:

ـ أعتقد أننا كنا مشغوفين ببعضنا لنفكر بأي شيء آخر. كان يعمل في مكتب، لكنه لم يكن راضٍ عن عمله.. قال إنه يحب الحياة في الهواء الطلق، وإنه يفكر بالتفتيش عن عمل ما في مزرعة.. والوظيفة هنا كان معلناً عنها في الصحف مع هذا البيت. تقدم إليها دون أن يعرف أن أبي يعمل هنا.. وبومها كان أبي مسافراً، يقضي أسبوع إجازة مع خالتي تينا، ووكيل المزرعة كان غائباً كذلك، وهكذا كان السيد هتلي هو من استخدم كولن شخصياً، وبما أنني كنت لا أزال أعيش بمفردي، لم أعرف بأنه

حصل على عمل هنا. وكنتما قد تزوجتما عندما عدت للعيش مع والدي، بحجة أني تزوجت وتطلقت بعد شهرين من الزواج لأنني اكتشفت متأخراً أنني لا أحب زوجي.. وصدمنا معاً حين التقيت به هنا. فلقد كاد يطير صوابه، بدا واضحاً أنه تصور انهيار زواجه.. لكنني أكدت له أن لا نية لي في أن أخبرك.. أو أن أخبر أحداً من هو والد طفلي.. لكنه بقي تعيساً، إلى أن أقسمت له فارتاح باله.

فكرت سالي: كل هذا كان يجري بينما كنت أعيشُ في جهل تام سعيدة.. مغفلة وسألت ماريا:

ـ حين.. حين رأى تيم.. وكان يراه دائماً.. كيف كان يتصرف معه؟

كان صوتها فارغاً أجوف.. لم يكن لديها القدرة على تحمل الرد المحتمل على سؤالها.. لكن حين جاء الرد، كان تماماً كما توقعته:

ـ لقد جن به حباً.. لطالما قال إنه يشبهه.

ـ أتظنين أنه ندم...

صمتت تبلع ريقها وتهز رأسها، ثم أكملت ترتجف وكأنها تحاول إقناع ماريا بالواقع:

ـ لقد أحبني.. أحبني فعلاً!

ـ بالطبع كان يحبك.. ولم يندم أبداً على عدم قدرته على الاعتراف بأبوته لتيم..

صمتت ماريا فجأة، تنظر إلى سالي التي كانت غارقة بأفكارها، فلو أن كولن بقي حياً، وكبر تيم ليصبح شاباً رائعاً، فلا شك أنه كان سيندم.. سرعان ما أبعدت سالي هذه الفكرة عن رأسها وقالت:

ـ ذكرت لتوك أنك أقسمت لكولن أن لا تخبري أحداً بالأمر.. فلماذا تقولين هذا لي الآن؟

ـ ما كنت سأفشي ذلك لو لم يمت.. وحين جئت الآن إلى هنا، كنت سأطلب منك الاحتفاظ بتيم لفترة قصيرة.. كنت مقتنعة أنني ما إن أتزوج

من دان، وتستقر في المنزل الصغير الذي سيشتريه، سأتمكن من إخباره بالأمر، وأجعله يفهم ما كان بيني وبين كولن.. لكنني الآن لم أعد واثقة.. إنها المرة الأولى التي أتحدث فيها مع أحد عن كولن، وأظن أن هذا أفادني.. وأشعر أنني لا أستطيع المخاطرة برفض دان تربية تيم.. ولا أريده أن يبقى مع أبي، ولو لفترة قصيرة، فهو غير قادر على العناية به والعمل في وقت واحد.. لكن هذا لم يعد مشكلة بالنسبة لي.. فقد قررت خلال الدقائق الأخيرة أن أخبر دان بشأن تيم بعد ظهر السبت القادم حين نتقابل. فإذا لم يرغب به، فلن يكون هناك زواج.. أتمانعين لو دخنت سيكارة؟

ـ لا.. بالطبع لا.

راقبت سالي ماريا تشعل سيكارة، لم تستطع يوماً أن تكره ماريا.. بل الواقع أنها طالما أحست بالأسى عليها. وأدركت الآن كم هي طيبة، وأنها بالرغم من قساوتها فهي أيضاً صريحة ومستقيمة.

ـ أكنت تتوقعين مني أن آخذ تيم؟ أتظنين أنني سأتخلى عن عملي؟

ـ لدي بعض المال، لقد وفرته منذ زمن، وكنت أنوي عرضه عليك، آملة أن تعتني به لفترة إذا عرفت من هو والده.. فلديك راتب تقاعد من زوجك، وأعرف أن هذا المنزل لك بدون إيجار، كما هو حال منزلنا وباقي المنازل في هذه الأملاك.

سألتها سالي بدهشة:

ـ ألديك مال متوفر؟

ـ أجل.. كنت أختزن بعض المال.. وبما أنني أفضيت إليك بالكثير فمن الأفضل أن أقول لك إن السيد هنتلي ساعدني كثيراً في البداية، ولا يزال يساعدني بطريقة غير مباشرة من خلال دفعه مرتب مرتفع لوالدي.

ـ هل ساعدك السيد هنتلي منذ البداية؟

أمر طبيعي أن لا تذكر ماريا ما إذا كان كولن قد ساعدها في ذلك الوقت.

ـ أجل.. كان لطيفاً معي بالفعل.

ـ يذهلني أن يكون لطيفاً!

ـ لدى الناس فكرة خاطئة عنه سالي. إنه ليس ذلك «الغول» الذي تسمعين عنه.

تسمعين.. وجدت سالي نفسها تتساءل لماذا ركزت ماريا على تخصيصها بالكلمة.. وكأنها تأمل أن ينال غافن هنتلي حظوة في عينيها. لكنها على الفور صرفت الفكرة من رأسها.. إنها فكرة سخيفة، فماريا لا تهتم مطلقاً ما إذا أعجبها أم لم يعجبها مالك القصر.

تابعت ماريا الحديث مجدداً، وتعابير وجهها مضطربة، لكن هناك إصرار واضح في صوتها:

ـ سأخاطر بالكثير حين أخبر دان الحقيقة.. فنحن لم نعرف بعضنا منذ مدة طويلة.

ـ لكنها مدة كافية لتعرفي إن كنت تحبينه حقاً؟

ـ أجل، فما أحس به أمر يختلف تماماً عن العلاقة التي كانت بيني وبين كولن.

ـ إذا كان دان يحبك ماريا، فمن المؤكد أنه سيقبل بتيم.

عرفت سالي بعاطفتها المكبوتة حتى الآن، أن مقاومتها غير الطبيعية كانت على وشك الانهيار.. فلن ترى الطفل بعد الآن.. طفل كولن.. قالت:

ـ أرجو.. أرجو.. أن.. يكون دان.. أباً صالحاً.. له.

وانهمرت الدموع.. متدفقة بألم ومرارة من عينيها.. وقفت ماريا بهدوء وارتدت معطفها.. شاردة الذهن، تحدق بسالي الجالسة هناك مكوّمة بحزن، رأسها بين يديها، تبكي وكأن قلبها سينفطر.

وبدون أية كلمة، استدارت وخرجت من الغرفة إلى الردهة ثم خارجاً إلى صقيع الليل. التفتت إلى نوافذ منزل سالي، حيث كان الثلج يتجمع كرقائق الألماس.. ثم رفعت نظرها إلى القصر المرتفعة أبراجه كأسنان

سوداء لوحش من وحوش ما قبل التاريخ.. وبعد لحظة انكسر الصمت على صوت القفل يتكتك عائداً إلى مكانه بعد أن جذبت ماريا البوابة لتقفلها خلفها.

• • •

www.liilas.com

٤ ـ سيد قدرها

جلست سالي دون حراك لساعات.. عشاؤها دون طهي، نسيته أمام تدفق الأفكار التي كانت تعانيها من كشف ماريا للحقيقة. الحقيقة الصارخة التي لا يمكن تغييرها والتي بقيت ثابتة في رسوخها: إن سالي ما كانت لتصبح زوجة لكولن لو قبلت ماريا الزواج به.. فبوجود طفل منه كان لها حق الأولوية به، ولقد اعترف بهذا بنفسه وأبدى استعداده للزواج منها.

ـ كم أتمنى لو أنه تزوجها!

نهضت عن الكرسي، ساقاها متصلبتان، وجهها متورم من الدموع التي تدفقت، واستمرت هكذا ساعات وساعات، إلى أن أحست أنه لم يعد هناك دمعة واحدة يمكن أن تُذرف.

ـ لو تزوجها.. لكنت الآن نسيت آلامي الماضية! ولكن بعد ثلاث سنوات من الزواج المثالي.

وبدأت تدرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ويداها مضمومتان بشدة إلى جانبيها.

ـ كم أن ماريا قاسية!.. قاسية جداً! لماذا لم تدعني وشأني في حلمي؟ لماذا حطمت كياني!

توقفت فجأة، مدركة أنه لو مرّ أحد أمام البيت لسمع حديثها مع نفسها، فصوتها كان يرتفع إلى درجة الصياح الهستيري.. جافة العينين دخلت المطبخ لتحضر لنفسها إبريق شاي متمتمة:

ـ ما الذي بقي لي بعد الآن؟

نسيت الشاي وهي تتجه لتناول معطفها.. وضعت قبعة صوفية على رأسها ثم فتحت الباب، فتدفق رذاذ الثلج فوق السجادة.. لاحظت كم أن

الجو كئيب! وكم أن البرية موحشة. خطت سالي إلى الخارج، عيناها تبحثان عن أضواء البيوت الصغيرة المنتشرة.. كانت هذه الأضواء تبعث الراحة.. وهي لا تريد الراحة. وبسرعة قطعت مسافة كبيرة بينها وبين أي مبنى يظهر فيه أي بصيص من نور.. وبجانب القصر الكالح السواد، وأمام السماء المظلمة التي لا نهاية لها، لا شك أن غافن هنتلي يعيش في الجهة الأخرى للقصر، وهناك لا بد من وجود الكثير من الأنوار.. سارت سالي.. دون اتجاه محدد، تقطع حقلاً مهجوراً وراء الآخر. وبالكاد كانت ترى حدود التلال والمراعي الكئيبة القريبة، الباردة، تحت بساط من الثلج يزداد سماكة، وأخذ يضرب وجهها وهي تتابع طريقها، غير مهتمة إذا كانت ستعود إلى منزلها أم لا.. بقوة وشراسة، في محنتها هذه كانت تحاول التمسك بشيء ما.. لكن ما هو؟ لقد سلبتها ماريا كل شيء.. وبدأ اليؤس المتصاعد يخف تدريجياً.. ليأخذ مكانه ألم مرير.

لاح لها شكل جسم أسود، من مسافة قريبة.. فتوقفت مسمّرة بالخوف.. حاولت أن تصرخ، لكن كانت حنجرتها مخنوقة، وكل ما خرج منها كان مجرد صرخة خافتة، أشبه بآهة بدلاً من طلب عون ملحّ.

ـ هذا أنا.

قطع صوت غافن هنتلي الأجش الصمت. وأحست سالي بعودة الدم إلى وجهها.. كانت على وشك الركض نحوه دون معرفة السبب، مع أنها لا ترغب في صحبة أحد، وليست خائفة من البقاء وحدها في الليل.

ـ ماذا تفعلين في الخارج في مثل هذا الوقت.. وفي مثل هذا الطقس؟

اقترب منها، قاطعاً المسافة بخطوات سهلة وصوته غاضب، معاتب مليء بالقلق..

ـ شاهدت شبحاً يتحرك وأنا أنظر من النافذة.. إلى أين أنت ذاهبة؟

ردت دون تفكير:

ـ إلى اللامكان.

أمسك بذراعها دون أن يلقى مقاومة منها.. سمحت له أن

بقودها، فبالكاد كانت تعي ما يجري حولها.. غاص الثلج في معطفها ليبلله حتى الذيل وعلى الكتفين، وها هي قد حصلت على الضياع الذي سعت إليه.. فجأة أخذت الطبيعة بزمام الأمور، فلم تعد تقوى على الريح التي كانت تخترق ثيابها، ولا البؤس المشبع الذي يؤثر على ساقيها وقدميها.. اجتاحها ظلام مطبق، وتزامن فقدانها للوعي مع رفع غافن لها بين ذراعيه، ممسكاً بها قبل أن تقع.

فتحت عينيها المتعبتين ببطء، أمام الضوء الخافت.. وأخذت تستعيد وعيها تدريجياً، مما أعطاها الإحساس بالدفء من حولها، وبالراحة في فراش من الريش.. أين هي؟ ماذا..؟ كانت تسير في الثلج، حين لاح لها طيف أسود مخيف، في ذلك الظلام الدامس.. كان غافن هنتلي! وها هو هنا الآن.. عملاق بملامح خشنة قاسية.. وتذكرت كل شيء.. حديثه معها، إمساكه بذراعها، قيادته لها حيث شاء، فجأة ضمرتها برودة اخترقت عظامها، وعلمت أن هذا هو سبب فقدانها الوعي.

همست، مع علمها بالرد الذي ستحصل عليه:

ـ أين أنا؟

ـ في القصر سيدة واينغ.

ـ لكن.. لكن..

شهقت فجأة بعد أن مررت يدها تحت الغطاء لتكتشف أنها عارية! ارتفع الدم الساخن إلى خديها، وأدارت وجهها بعيداً عن نظراته المتفحصة:

ـ أنت.. أنت.. هناك من.. خلع.. ملابسي..

قال بهدوء:

ـ كان هذا ضرورياً.. كنت مبللة حتى العظم. وكنت مضطراً إلى تخليصك من ثيابك.

صاحت:

ـ ليس من حقك..

وتلاشى صوتها إلى الهمس:

ـ أوه.. ماذا تحاول أن تفعل بي؟

كانت خائفة، ترتجف، من هذا الرجل وقوته التي بدا أنه يميل إلى فرضها عليها:

ـ كان الأجدى بك أن تأخذني إلى بيتي.

ـ وأتركك هناك لوحدك؟

مد يده ليمسك يدها التي أخرجتها لتوها من تحت الغطاء، وتحسس نبضاتها، ثم هز رأسه راضياً. حاولت سالي الجلوس، تشد الغطاء معها.. لكنه أعادها بحزم إلى الوسادة:

ـ ابقي هادئة لبعض الوقت.. سأجيء لك بشراب.

أخفت ضيقها، وقالت بعناد متبرم:

ـ خادماتك.. كان لواحدة منهن أن تعتني بي..

كانت تتذكر فيه وهو يخلع عنها ملابسها، وانكمشت إحراجاً.. ورد عليها:

ـ الجميع غارق في نوم عميق.. والوقت تجاوز منتصف الليل بكثير! هل سارت كل هذه المدة؟ تركَ الغرفة قبل أن تتكلم، فنظرت حولها، لترى أن السرير ضخم قديم الطراز، له مقدمة فوق الرأس بارزة النقوش، الخزانة، وطاولة الزينة، كانتا كذلك من خشب السنديان السميك، المحفور.. الستائر من المخمل السميك الأحمر القاتم كانت تعطي دفئاً مميزاً للغرفة، لكنها رغم هذا، كانت باردة كئيبة، ينقصها الأمان.

عاد غافن، مع كوب من الحليب الساخن فوق صينية، وطبق من البسكويت، حاولت سالي مجدداً أن تجلس.. ورفعت الغطاء حتى عنقها.. وضع غافن الصينية، ووقف ينظر إليها، وتعبير غامض في عينيه.. أحست بالدهشة، لأنه لم يظهر أي استغراب لوجودها في الخارج وفي مثل هذا الوقت من الليل، تسير لوحدها في الثلج على غير هدى، ودون أن ترتدي ما يناسب هذا الطقس العاصف.. وكأنه يعرف أن هناك

www.liilas.com

سبباً محدداً لما فعلته..

قال لها:

- وضعت ملابسك في حجرة تجفيف الملابس، وإلى أن تجف يمكنك ارتداء شيء من ثيابي.

غاب ثانية ليعود ببيجامة أنيقة زرقاء وضعها على السرير وغادر الغرفة مجدداً.

أحست بالراحة وقد ارتدت ثياباً ملائمة.. وتمكنت من ملاقاة نظراته، حين عاد ودون حرج.. كان بارداً، غامضاً، ووجهه دون أي تعبير. وصدمها أنه لم يهتم مطلقاً بجسدها، بعد أن اضطر إلى تعريتها.

أعطاها كوب الحليب، الذي شربته بتهم، متمتعة بدفئه وطعمه الحلو. طلب منها تذوق البسكويت، فأطاعته. سألته، ما إن أنهت الحليب والبسكويت:

- ألا يمكن أن تكون ملابسي قد جفت؟

افترضت أنه سيعيدها إلى منزلها، فلم تتصور أنه سيسمح لها بالذهاب بمفردها. لكنه قال بهدوء:

- ستبقين هنا الليلة، فالوقت متأخر جداً لكي تغادري.. على أي حال، الثلج يتساقط بكثافة أكثر مما كان..

قاطعته سالي بخوف:

- لا أبالي.. وأفضل العودة إلى المنزل، إذا كنت لا تمانع؟

- بل أمانع.. أنت الآن جافة ودافئة، ومتعبة جداً.. ومن غير المنطقي أن أسمح لك بارتداء ملابسك والخروج ثانية في هذا الطقس البارد.

أسمح لك..! تزايد خوفها عندما سمعت كلماته وبدت لها قوته لا تقاوم.. وقررت أن تتحداه، لكنها وجدت نفسها تقول بضعف وخنوع لم تصدق أنها يمكن أن تصل إليهما:

- أجل سيد هنتلي.. أنت محق.. من السخف أن أخرج في مثل هذا

الطقس.

استفاقت في الصباح التالي على نوع غامض غريب من الصمت، وعرفت أنه ناتج عن العاصفة الثلجية في الليلة الماضية.. استلقت على الفراش تفكر بماريا وتيم.. وبذلك الإحساس المدمر الذي تملكها، والذي جعلها عرضة للخطر أمام سلطة وقوة خانق هنتلي.. فلا شك أنه سيطلب منها الزواج مجدداً، لكنها سترفض.. يجب أن ترفض! الشيء الأكثر حكمة هو أن تنتقل من هنا.. وأن تضع القدر الأكبر من المسافة بينهما.. لكن إلى أين تذهب؟ ليس لديها الكثير من المال، ولا أحد في العالم يمكنها أن تلجأ إليه.

دخلت الخادمة بعد أن طرقت الباب بهدوء، وثياب سالي على ذراعها مطوية بترتيب، ومكوية. ابتسمت الفتاة لسالي التي كانت تعرفها وتدعى سوزان ووضعت الثياب على كرسي ثم قالت:

- يتناول السيد هنتلي الفطور عند التاسعة سيدة والينغ، كيف حالك الآن؟ ذكر السيد هنتلي أنك مرضت فجأة ليلة أمس، فجاء بك إلى هنا.

بدأ الاحمرار يتصاعد إلى خدي سالي.. لكن، حين لاحظت تعابير وجه سوزان، أدركت أن الفتاة لا تعرف شيئاً عن التفاصيل.. لذلك تظن أن سالي قد خلعت ملابسها بنفسها.. فقالت تحاول أن تكون عفوية:

- أجل.. مرضت فجأة وأنا أتمشى في الخارج، فشاهدني السيد هنتلي وجاء بي إلى هنا. وكان هذا لطف منه.

صمتت سوزان مع أنها ظنت أن من الغريب لأحد الخروج ليتمشى في ليلة كليلة أمس، إلا أنها لم تشر إلى ذلك. بل قالت:

- هناك حمام في الممر إلى يسارك.. أتريدين أن أملأ المغطس ماءً؟

- أجل شكراً لك سوزان.

بعد نصف ساعة كانت سالي في غرفة الطعام، أوصلتها مديرة المنزل إلى هناك، والتي لا بد أنها تلقت تعليمات بالعناية بها. كان يقف قرب النافذة، يداه في جيبي بنطلونه، ينظر إلى الخارج إلى الوادي الأبيض،

والمراعي المليئة بالماء، والجبال المكللة بالثلج. أدار رأسه حين دخلت، وطافت عيناه على جسدها النحيل:

ـ صباح الخير.. هل نمت جيداً؟

ـ أجل.. شكراً لك سيد هنتلي.

طافت عيناها سريعاً بالغرفة، كانت لطيفة دافئة وفخمة جداً، أثاثها أثري، وسجادها سميك.. لم تدر كم الساعة، لكنها فهمت من تصرفات سوزان، أن لديها متسع من الوقت، ومع ذلك سألت:

ـ هل تأخرت؟

ـ لا.. لم تتأخري.

أحضرت مدبرة المنزل الفطور على صينية من الفضة. قال لها أن تتركها فسيهتمان بذلك بنفسيهما. سرعان ما سألها ما لم تكن تتوقعه، وبلهجة آمرة:

ـ لماذا كنت تتجولين ليلة أمس على غير هدى في الثلج؟

هزت كتفيها محاولة قدر الإمكان أن يكون كلامها عادياً.

ـ أحسست برغبة في السير.

عيناه السوداوان تفحصتاها بشدة:

ـ لكن لا بد من وجود سبب ما.

تجهمت سالي وبدون أن تدري شعرت أنه كان يعرف الرد.. لكن كيف يمكنه أن يعرف؟ كيف يعرف بزيارة ماريا لها؟ وكيف يعرف بالسر الذي كشفته لها؟ السر الذي حطم توازنها.. ومحى كل ذكرياتها الجميلة.. وسلبها كل تفكير سليم.

لم تجب فأصر غافن على سؤاله:

ـ ألا يمكن أن تخبريني عن السبب.

هزت رأسها نفياً:

ـ إنها مسألة خاصة.

أخذ غافن صحنها ليسكب فيه بعض البيض واللحم.. ومرر الصحن

لها مع التوست قبل أن يضع الطعام لنفسه وقال بهدوء:

ـ أنت لا زلت تعتبدين خيالاً.

خيالاً.. أجل، كولن كان خيالاً، الاعتراف بهذا صدمها، لكنها صدمة خفيفة.. فلو أرادت ماريا الزواج منه، لتخلى عنها.. وليس في هذا قساوة لكنها الحقيقة.. حقيقة لا يمكن إنكارها.. فقد وفى كولن بوعده لها لأن أم ابنه لم تدعه يفي بواجبه نحوها.

تناول غافن طعامه بصمت لفترة.. ثم قال بهدوء:

ـ خذي من الحياة ما تقدمه لك.. أعطي نفسك فرصة للعيش ثانية. لن تجدي زوجاً متطلباً.. ما أريده هو ابن.. وربما تريدين أنت ابنة. فلماذا تحرمين نفسك من فرصة أن تحبي وتُحَبي.. أن يحبك من هم من حولك.. ومن يحتاجون إليك؟

نظرت إليه، وبطريقة ما لم تشعر أنها تخافه كما كانت تفعل دائماً. تذكرت تعامله مع الصغير تيم، وكيف قررت أنه على الأرجح سيكون أباً طيباً، ولن يكون زوجاً متطلباً أبداً.. لقد وعد بذلك.. وهي تؤمن أنه سيفي بوعده.. فهو يريد ابناً، وأشار إلى أنها قد تريد ابنة.

قالت بهدوء، أذهلها:

ـ علي أن آخذ الوقت الكافي للتفكير بالأمر.

توقف غافن عن وضع قطعة خبز في فمه، ولاحظت أن عيناه قد ضاقتا قليلاً.. وأحست بلمعان برق النصر فيهما، بدون أن يتأثر.

ـ ستفكرين بالأمر إذاً؟

هزت رأسها:

ـ أجل.. لكنني لا أعد بشيء.

أحست وكأنها لم تعد تشعر بالحياة.. فبعد أن عاشت مع ذكرياتها طويلاً، فهي تشعر بالخوف الآن، وكرهت تحطيم ماريا لهذه الذكريات كان عليها أن تبقي سرها مكتوماً، وإلى الأبد.

قال غافن:

ـ أنت حكيمة.. وأنا واثق أنك ستجدين مزايا عديدة للزواج ثانية، وستأخذين القرار المناسب.

سألت بعد صمت قصير:

ـ لماذا أنا.. سيد هتلي؟ فهناك العديد من النساء مناسبات أكثر مني لك.

ـ أظن أنني قلت لك إنني أريد زوجة دورها لا يزيد عن سيدة لهذا المنزل وأم لأولادي.. أنا رجل غير عاطفي، وأؤمن بأن الحب حالة فكرية تثيرها أوضاع مصطنعة وأنا لا أريد شيئاً من هذا.

ارتجفت سالي من كلامه، وتساءلت لماذا لا يخطر ببالها أن تخبره أنها غيرت رأيها وأنها لن تستطيع التفكير بعرضه.. وأكمل يقول:

ـ إن الذي يدعى حباً.. هو هراء ينتج عنه فقدان المرأة لسلامة تفكيرها، والرجل لقوة شخصيته.

أدارت سالي رأسها بعيداً، تلبها بخفق بشدة.. كيف يمكنها أن تتزوج رجلاً له هذه الأفكار المخيفة عن الحب.. صحيح أنها لا تريد حبه، ولا تريده من أي رجل آخر، لكن غافن بدا وكأنه لا يؤمن بوجود أية عاطفة ولو صغيرة. ويحدد العلاقة بينهما كالآلة بدلاً من الإحساس بالمشاركة والفكر والحنان.. والحب.. أجل، تريد أن تتمكن من أن تحب ثانية.. يجب أن تكون قادرة على أن تحب إذا كانت ستنجب أطفالاً.. لكن أيمكن أن تشعر بالعاطفة لو تزوجت رجلاً قاسياً بدون قلب مثل غافن هتلي؟ أيمكن أن تأخذ بعضاً من سخريته الباردة للحياة، مما يجعلها قاسية مثله ويحرم أولادها من الحب الذي لن يرثوه منه ولا منها؟ ومع هذه الأفكار، كانت تتذكر جانباً آخر منه، الجانب الأكثر نعومة الذي أظهره مع تيموثي.

حدق بها، بقوة نافذة، جعلتها تستدير لتلتقي بنظرات عينيه التي لا قرار لها. كان صوته هادئاً مصراً، مخيفاً:

ـ بماذا تفكرين؟ بزوجك المتوفي؟

ـ لا.. إنه ليس في أفكاري مطلقاً الآن.

ـ بماذا إذاً؟

نظرت إليه بعينين تتخللهما الدموع ولم تحاول إخفاءها وقالت تعترف:

ـ أنا خائفة.

ـ من الزواج مني؟

ـ ليس هذا فقط.. من الحياة.. إنها.. إنها.. كئيبة.. جداً.

رمت شوكتها وأخذت تفتش عن منديلها. هل رأت وجهه يلين؟.. أجل.. إنها واثقة..

ـ لن تبقي هكذا.. الوقت لا زال الشافي الأكبر لكل الأحزان.. بعد سنتين أو ثلاثة من الآن، ستكونين سعيدة وأماً راضية.. تملأين وقتك بالتفكير بأشياء مفرحة ولن تجدي الوقت لهذه الذكريات التي تفكرين بها اليوم.

تغيرت تعابير وجهه وهو يتكلم عن ذكرياتها. وأخذ يراقب وجهها لملاحظة أي تغيير فيه. وأبعدت سالي المنديل، فقد تمكنت من منع دموعها التي كادت أن تتساقط:

ـ لو أنني فقط أستطيع تصديق كلامك هذا!

ـ أؤكد لك أن ما أقوله صحيح. اذهبي إلى بيتك الآن، وفكري بجدية في عرضي.. واعطني ردك حين تشعرين فقط أنك وصلت إلى القرار المناسب.

• • •

كانت ماريا تفتح بوابة الحديقة بيد، وتمسك تيم بالأخرى.. فتحت سالي باب المنزل، فركض تيم نحوها في الممر الذي نظفته سالي من الثلج الكثيف الذي غطى كل شيء ما عدا الطرقات وسقوف المنازل.. وبدا القصر مغموراً في الثلج، مخيفاً وبعيداً.

ـ ادخلي ماريا.

كان صوت سالي هادئاً لكن قاسياً.. لم تستطع أن تسامحها، ولن تستطيع.. لكن من ناحية أخرى لا يمكنها كراهيتها حقاً. كان اليوم بعد ظهر السبت وتوقعت سالي حضورهما:

ـ أتريدينه أن يبقى عندي؟

دخلت ماريا الردهة بعد أن مسحت حذاءها جيداً.

ـ لا.. سأخذه معي، وفكرت أن أخبرك بذلك.

استدارت بينما كانت سالي تغلق الباب، ونظرت إليها نظرة غريبة.. أحست سالي أن ماريا تعرف تماماً كل ما حدث لها منذ بضعة ليال سابقة. ربما أخبرتها سوزان بهذا، فالفتاتان صديقتان مقربتان.. تابعت ماريا واهتمامها ينصب على تيم وهو يدخل المطبخ:

ـ سأجرب حظي.. وبإمكان دان اتخاذ القرار المناسب.

ـ أليس في هذا مخاطرة؟ أعني، أن ترمي إليه بتيم فجأة.. لماذا لا تخبريه عنه أولاً؟

هزت ماريا كتفيها، لكن شفتيها ارتجفتا، أمام دهشة سالي:

ـ سيصاب بصدمة دون شك.. لكن إذا لم يقبل به، فلن يحصل عليّ أيضاً. الأمر هكذا بكل بساطة.. لذلك من الأفضل أن أنهي الأمر اليوم.. وإذا أخذته معي سأحصل على الرد بعد ساعتين من الآن.

فكرت سالي بهذا وهزت رأسها باحتجاج:

ـ دعيني أهتم به اليوم.. وأخبري دان عنه، ثم دعيه يقابله.. أنا متأكدة أن دان سيحبه، ويريد أن يتبناه.. لكنني واثقة كذلك من خطورة عرض تيم أمامه دون إنذار مسبق.

نظرت ماريا إليها بسخرية:

ـ أنت متعقلة جداً، ومتطفلة! ولو كنت متعقلة مثلك لما كان عندي تيم أصلاً! لكنني اتخذت قراري: سيقابل دان تيم اليوم.

وصل صوت الصغير للمرأتين من المطبخ:

ـ آنتي سالي.. هل لي أن آخذ بعض البسكويت وجرعة من الحليب؟

تقدمت ماريا منه وأشارت إليه:

ـ لا.. تعال.. سوف تقابل سيداً لطيفاً..

عاد تيم على الفور، وبعد لحظات كانت سالي تنظر إليهما بمضيان عبر الممر، ثم نحو الطريق الرئيسية ومحطة الباص، فأغمضت عينيها تدعو الله أن يحب دان الصبي.

واستجيبت دعواتها، وعادت ماريا ثانية إليها بعد التاسعة والنصف من ذلك المساء، لتقول لها إن دان وافق على تيم ووعد بمعاملته كابنه. وتابعت:

ـ أعترف أنني ذهلت.. بدا متفهماً جداً.. بعد الصدمة الأولى. لكن تيم ملاك في الواقع، وأحب دان على الفور، وكسب عطفه في الحال.

هزت سالي رأسها تفكر بكولن، فالواقع أن رجلاً آخر سيربي ابنه.. لكنها استعادت أفكارها إلى الحاضر:

ـ إذاً.. لن تأتي به إليّ مرة أخرى؟

ـ لا.. دان يريد أن نتزوج في الحال.. وأبي سعيد لأن خالتي تينا ستوافق الآن على أن نتزوجه بعد وقت قصير.

لقد جرت الأمور على ما يرام.. لكن ماذا عن حياتها هي؟ سيكون هناك فراغ قاتل حين يرحل تيم!

لم تذكر سالي فيما بعد متى اتخذت قرارها.. أحست أنها توصلت إليه تدريجياً، حتى أنها لم تلاحظ اكتمال الفكرة لديها. لكنها فجأة تخيلت نفسها زوجة لفافن هتلي، وأماً لأولاده. وعندما تلقى ردها لم يبد عليه أي تأثر.. بل قال لها بكل برودة إنها اتخذت القرار الحكيم، وإنها لن تندم على ذلك وستجد يوماً أن كولن لن يعود ليزعج أفكارها، وستتعلم الضحك مجدداً.. وأنهى كلامه:

ـ لن يكون لنا شهر عسل، بالطبع.

ردت بصوت متوتر:

ـ لا أتوقع هذا.

فكرت أن شهر العسل هو للعشاق، وليس لمن يدخل مرحلة الزواج عن عمد وسابق تصميم وبالطريقة الباردة التي تمارسها هي وغافن..

وتابع:

- لا أريد إضاعة الوقت.

وافقت معه، فلقد اختارت طريقها، ولا سبب يدعوها أن لا تسير في هذه الطريق فوراً.

تزوجا خلال أسبوعين، أمام دهشة جميع من يسكن تلك المنطقة أو يعمل فيها.. ما عدا ماريا.. فقد كانت ردة فعلها محيرة لسالي. وكأنها تعرف أن الزواج سيتم، وحدثت سالي عنه ببساطة قبل الموعد بيومين:

- على السيد هنتلي أن يتزوج، وأنا مسرورة أنه اختارك أنت سالي.

اضطربت سالي قليلاً، ورغبت بسؤال ماريا عن عدم دهشتها، لكن السؤال المناسب راوغها، فصرفت النظر عن المسألة. تم الزفاف بدون أي فرحة بكل هدوء في الكنيسة الصغيرة الخاصة التي تزوج فيها الكثير من أسلافه من قبل.. وبالنسبة لسالي بدت المراسم غريبة، دون أي ذكرى طافت برأسها، للمناسبة أحست مرة أخرى أنها أشبه بدمية، تتحرك برغبة الرجل الذي يمسك بها.. سيد قدرها غافن هنتلي.

عادا من الكنيسة إلى القصر، هي إلى غرفة النوم، وهو إلى مكتبه، حيث بقي هناك إلى موعد العشاء، ودخل إلى غرفته ليغير ملابسه. وجلست سالي على مقعد قرب النافذة لساعات. غير قادرة على التفكير بوضوح، أو على رسم صورة واضحة لمستقبلها.. مع ذلك، ومن خلال كل ما مرّ بها، كانت تعي واقعاً أن ألم خسارتها قد خف.. منذ اليوم الذي كشفت لها ماريا الحقيقة.

الحركة في الغرفة الثانية أعادت سالي من حالة الشرود التي فيها. فاستحمت، وارتدت الفستان الذي كانت قد ارتدته في تلك الليلة الأولى.. ونزلت إلى غرفة الطعام.. تعي بضبابية أن الفصل الأخير من هذا اليوم سيتم قريباً.. حين يأتي زوجها إليها.. وأغمضت عينيها على

الصورة الغامضة لليلة زفافها السابقة، حين جاءت هي بكل شوق إلى زوجها المشتاق، مبتهجة أن تكون بين ذراعيه، تريد لتلك الليلة أن تستمر إلى الأبد.

توترت أعصابها حتى درجة الانفجار، قبل نهاية العشاء بكثير. وعندما سمعت غافن يتحرك فيما بعد في غرفته، أحست أنها على وشك الصراخ لحظة فتح الباب الموصل بين غرفتيهما.. ما هي أفكاره؟ هل يفكر بماذا سيفعل في الساعة التالية..؟

«أوه يا إلهي! لن أستطيع تحمل هذا!» لماذا تزوجته؟ كم تود لو تتخلى عن كل شيء في سبيل عودتها آمنة إلى بيتها، بعيدة عن هذا القصر الكالح ومالكه المخيف.

كانت تقف بثياب النوم، قلبها يضرب بشدة.. أعصابها مشدودة إلى درجة الانهيار، واستدارت أكرة الباب، فاستدارت محدقة، مذهولة، والباب ينفتح ببطء ليظهر غافن في روب أزرق رمادي يقف طويلاً مهيباً، متجهم الوجه.. دخل بخطوات هادئة وهيناء على خدبها الشاحبين.

- ظننتك نائمة.

ملأ الصمت المكهرب المتوتر الغرفة لدى دخوله، فاحمرت بشكل مؤلم. مدّ غافن يده ليأخذ يدها، لكنها ابتعدت عنه بسرعة تضع يديها خلفها.. وخرجت الكلمات بصعوبة من خلال الغصة الخانقة التي رافقتها الخوف والبؤس إلى حنجرتها.

- لا.. أستطيع غافن.. أرجوك أن تفهم.. أنا.. لا.. لا أريد..

لقد ارتكبت غلطة.. ما كان يجب أن أوافق على.. أن أصبح زوجتك.

طغى الصمت ثانية على الغرفة.. دونما سبب فكرت سالي كم من الناس ماتوا هنا، فوق هذا السرير العتيق المظلل الضخم.

- من الطبيعي أن تشعري بالاضطراب سالي.. لكنك ستتغلبين عليه.. وسرعان ما تسير الحياة على منوال مقبول لكلينا..

صمت فجأة، فقد كشفت نظراتها إليه ما تفكر به.. أيمكن لرجل أن

يتحدث هكذا في ليلة زفافه؟

«ستسير الحياة على منوال مقبول لكلينا...» فجأة انفجرت في ضحك هستيري.. وصاحت:

- أمر مضحك..! كل هذا الموقف مناف للعقل! أوه.. غافن.. لماذا لا تضحك..؟

توقفت عن الكلام حين تقدم إليها ليمسك بها بخشونة ويهزها صائحاً:

- توقفي عن هذا! اجمعي شتات نفسك.. أنت امرأة ناضجة تزوجت من قبل. فلماذا هذا الإظهار المبالغ فيه للخوف.. فأنا أرى الخوف في عينيك.. لقد عقدت صفقة معي.. وأتوقع منك الوفاء بها.

ابتلعت ريقها بصعوبة. جداله منطقي، كانت تعرف ما ستفعل، فلماذا تتصرف هكذا الآن؟

سمعت نفسها تقول بعد لحظات طويلة من الصمت:

- أنا آسفة.. الأمر.. أننا.. لا زلنا.. غريبين.

كان التوسل واضحاً في صوتها وفي عينيها الواسعتين.. لكن تجهم وجهه استمر.. حتى وهو يعترف:

- لا نزال غريبين.. لكنني لا أنوي أن نبقى هكذا.

كان في عينيه، لمعان غامض، أعلمها كل ما هي بحاجة لأن تعرفه.. إنه ينوي أن يبقى.. بالرغم مما تشعر به.. فله حقوق الزوج، وينوي أن ينفذها.

كانت يداه ما زالتا تمسكان بذراعيها، لكنهما أصبحتا أكثر رقة فجأة.. وبدا أن قساوة فمه قد تغيرت.. وجالت نظراته من أنفها المرتجف إلى ثنايا عنقها الرقيق، وإلى جيدها الثابت.. فأغمضت عينيها، لكنها استسلمت بخضوع حين أحست بملامسة شفتيه.. ولدهشتها لم تجد الأمر منفراً لها بالطريقة التي عانقها بها.

في اللحظة التالية، حملها بسهولة، وكأنها دمية، ليتوجه بها إلى

السرير الضخم.. فأغمضت عينيها مرة أخرى وهو ينزلها برفق. هدأت أعصابها بمعجزة، وكأنما قربها منه قد هدأها.. العطر الذي استخدمه بعد حمامه كان عطراً نظيفاً منعشاً.

استلقى على الفراش قربها، وأطفأ النور.. وأحست بيده تنسلل تحت الغطاء الحريري ليلف خصرها بذراعه الدافئة..

* * *

www.liilas.com

٥ ـ الحب وهم

مرّ شهر، مع استمرار الطقس العاصف. أما في القصر، فنيران المواقد كانت تتأجج باستمرار وتملأ الغرف بالدفء والنور. لكن، بقي قلب سالي يشعر بالوحدة، بالرغم من التغيير البطيء والغير ملموس، الذي كان يتم في داخلها تجاه زوجها وزواجها.

أجل.. عليها أن تعترف أن هناك تغيير.. فهي قد بدأت تعرف غافن بشكل أفضل مع كل يوم ينقضي. وجدته رجلاً عنيداً متسلطاً، كما توقعت بالطبع. فهو من النوع المسيطر دائماً مع من كان يتعامل معه. ومع زوجته، كان السيد غير المنازع، وكانت محكمة بما فيه الكفاية لأن لا تنتقده أبداً.. مع أنه لم يكن هناك من أسباب تدعوها لذلك، فهما بشكل عام كانا متوافقين.. وكان يفاجئها بين حين وآخر بلطفه ونعومته مما سمح لها باكتشاف أوجه أخرى من طبيعته، تشعرها أحياناً بالدفء، وتبدو جلية في المرح الذي يشع في عينيه وفي التواء خفيف لشفتيه يكشف عن قدرته على الابتسام أحياناً.

بعد مرور شهر آخر، ومع إطلالة فصل الربيع بأزهاره البديعة وجدت سالي نفسها منشغلة أكثر فأكثر بما يحيط بها.. أخذت تستكشف الحدائق المحيطة بالقصر والأراضي، والأحراج الظليلة المجاورة لها، وفي يوم من منتصف نيسان، والأزهار تملأ الهواء بالعطر، قال لها غافن إنهما مسافران إلى جزيرة «كوس» لزيارة أقاربه.

كوس.. هذه الجزيرة اليونانية الجميلة الغارقة في الأساطير، بتاريخها الذي يعود إلى غابر الأزمان.

سألت سالي منفعلة: متى سنذهب؟

ومع أنها كانت تترقب الزيارة للجزيرة ولكن من ناحية أخرى، عليها

إظهار بعض التعلق والحب لزوجها.. وكأنه قرأ ما يجول في افكارها، فقال:

ـ سيتوقع جدي منا، أن نتصرف كزوجين تزوجا حديثاً.

احمر وجه سالي قليلاً، وهمست:

ـ سأحاول ذلك.

ارتفع حاجباه:

ـ تحاولين؟ ما تعنيه ليس واضحاً.

فهمت ما يعني، فتشت عن كلمات ترد بها عليه، بينما كانت عيناها تتجهان نحو النافذة العريضة، تنظر إلى الأراضي الجميلة المنظر، الملبئة بالأزهار المتنوعة والبنفسج البري.. أخيراً تمكنت من القول:

ـ سأحاول أن أبدو وكأنني.. كأنني.. أحبك.

ـ عظيم.. وأنا كذلك.

استدارت تواجهه:

ـ أخبرني عن أقاربك في اليونان.

كان يقف أمام النار المتقدة، طويلاً، وثقاً من نفسه، ورجل يختلف تماماً عن كولن، وكل عجرفة أسلافه الإغريق مرسومة على خطوط وجهه واستقامة جسده، إنها صورة مؤثرة دون شك، ولطالما اعترفت سالي بهذا لنفسها ولقد اكتشفت مؤخراً، أنها تحس بنوع من الفخر حين يكونان معاً في الخارج، وذلك في المناسبات القليلة التي رافقها فيها لشراء بعض الحاجات. كان الناس، دون إرادة منهم ينظرون إليه بفضول وإعجاب وخاصة النساء منهن. ثم ترتدّ أنظارهن إليها، وكأنما الناظر ملىء بالفضول ليرى من هي التي تمكنت من أسر اهتمام مثل هذا الرجل البارز الرجولة.

قال، قاطعاً حبل أفكارها:

ـ جدي في السابعة والثمانين، وهو أرمل منذ أكثر من عشرين سنة.. يعيش في ڤيلا ضخمة في «كاردامينا» وهي أجمل قرى الجزيرة.. والڤيلا

قريبة من البحر، وأظنك ستحبينها كثيراً.. أعتقد.

قالت بفضول:

- هل كنت ترغب في العيش هناك.. لو لم يكن لك هذا القصر؟

فكر غافن قليلاً، ثم أدهشها باعترافه:

- أظن الحياة هناك رائعة.. ولن يشعر المرء بالطقس القاسي الذي نراه هنا في الشتاء.

- ألديك أقرباء آخرون؟ أبناء عم مثلاً.

عبس وجهه، ورد بحيرة:

- أجل.. لدي عدة أبناء عم.

- وهل سألتقي بهم جميعاً؟

- أتوقع ذلك.. فالكل يرغب بمعرفة الفتاة التي تزوجتها.

كان في كلماته تعبير غامض، فنظرت إليه.. لكن عيناه كانتا باردتين ولم تستطع قراءة شيء فيهما فسألته:

- أيعيش جدك لوحده؟

- أجل.. ما عدا الخدم.

- إذن فهو يرحب بالزائرين، على ما أعتقد؟

- لطالما أظهر السرور برؤيتي.. نحن متفقان جداً، ودائماً كنا كذلك.

مرة أخرى شعرت بالغموض في كلماته.. وأكمل، يغير الموضوع:

- ستحتاجين إلى ملابس خفيفة، فالربيع هناك دافىء.

- هل سأحتاج لملابس صيفية؟

هز رأسه بالإيجاب:

- اشتري أفضل الملابس، ولا تهتمي بالثمن.

احمرّ وجهها قليلاً.. مصروفها كان مبلغاً كافياً، وهي تفضل أن تدفع ثمن ثيابها منه.. لكنها كانت أذكى من أن تجادله.. فقد قال لها سابقاً إن مصروفها هو لها تصرفه كما تشاء، لكنه سيدفع ثمن كل ما تحتاجه من

أشياء أخرى ثمينة. وسألت:

- هل سأحتاج إلى ثياب سهرة؟

- كثيراً.

- كثيراً؟

- سنمضي في «كوس» حوالي ثلاثة أسابيع، وأريد أن يعرف جدي، أنك تتوقعين طفلاً.

ازداد احمرار وجهها:

- أنني ماذا..؟ لكن.. لماذا؟

- لأن هذه هي رغبتي.

هزت رأسها احتجاجاً، وارتجفت الكلمات على شفتيها:

- لن يعجبني هذا.

- ستفعلين ما أقوله لك.

اللهجة القاسية، الفك المتشدد، وخطوط فمه.. كانت أكثر من كافية لتسحق أية مقاومة أو احتجاج منها.. فسكتت على مضض، وقد أحست، أن التظاهر قد لا يكون ضرورياً.. فهي في الواقع قد تكون حاملاً.

كان النور يتحول إلى اللون الذهبي وظلال النخيل تتطاول عبر الحديقة، حين استدارت السيارة التي وافت غافن وزوجته إلى المطار، عند نهاية الشارع الطويل، إلى باحة مرصوفة بالحصى الناعم أمام الفيللا. السائق، الذي قدمه لها غافن باسم انغوس، نزل على الفور ليفتح الباب لجهة غافن، ثم يستدير ليفتح باب سالي.. فقال غافن بشيء من الانزعاج:

- آسف لهذا.. لكنك سترين أن الرجال هنا هم أكثر أهمية من النساء.

لم ترد.. فقد كانت تعرف وضع النساء في الشرق، فهن لا يعاملن أبداً بالمساواة.

أمسك غافن ذراعها وهما يتقدمان إلى البوابة، التي انفتحت على الفور، بيد خادمة بتسمة، ترتدي ثوباً أسود. حياها غافن بطريقته المتزمتة التي يستخدمها مع خدمه في القصر، لكنه خاطبها باليونانية.

- كالسبيرا فيونا.

ثم بالإنكليزية، التي تتكلمها الفتاة بطلاقة:

- هذه زوجتي.

ابتسمت فيونا بدفء، وهي تسلم عليهما.

- أنا سعيدة جداً بلقائك سيدة غافن.. أهلاً بك في اليونان!

ردت سالي شاكرة، لكنها نظرت شذراً إلى زوجها فقال:

- المرأة المتزوجة هنا تنادى بالاسم الأول لزوجها.. وهذا أمر آخر ستعتادين عليه.

بعد لحظات وجدت نفسها أمام جد غافن الذي ناداه باسمه الأول، وطلب منها أن تحذو حذوه.

نيكولاس ليانوس، رجل طويل، نحيل، ذو شعر أبيض وحاجبان رماديان كثيفان.. عيناه سوداوان كحفيده، وبشرته زيتونية اللون، متجعدة وكلمات ترحيب. وبدا مغتبطاً لزواج حفيده أخيراً، ويأمل أن يكونا بانتظار طفل. احمرت وجنتا سالي لسماع كلامه هذا. فضحك العجوز، معا زاد من إحراجها، وأضاف ينظر إلى حفيده:

- سأكون ممتناً لكما إذا حصل هذا.

رد غافن بهدوء:

- نحن نأمل بصبي.. نيكولاس.

رد العجوز بثقة:

- طبعاً.

وكأنما ما من رجل سليم العقل يرغب بفتاة. أحست سالي بالغضب فجأة.. فقد أحست وكأنها غريبة هنا، وكأنما زوجها لم يعد من

جنسيتها. وتكلم نيكولاس ثانية، هذه المرة باليونانية، ودام الحديث فترة طويلة بين الرجلين وذهلت سالي لسهولة استخدام غافن للغة اليونانية.. كان يتحدث بها بطلاقة كجده.. تحدث نيكولاس بسرعة، والعبوس يعقد جبهته.. بدا غاضباً من شخص ما.

انتقلت سالي من «الصالون» الجميل الأثاث، إلى غرفة نوم تطل على البحر الأيجي الهادىء، تبدو خلفه، جبال تركيا، الملتفة بضباب ليلكي اللون، وقالت لها فيونا:

- هل أفرغ لك الحقائب سيدة غافن؟

- لا، ليس الآن شكراً لك.

سرّت سالي لخروج الفتاة، فقد أرادت أن تبقى لوحدها قليلاً.. فمنذ ذكر لها غافن الرحلة إلى «كوس» وهي لم تكف عن التفكير بترتيبات النوم، فقد كانت واثقة أنها وزوجها سيعطيان غرفة واحدة. بينما في القصر، كان لهما غرفتان متجاورتان بينهما باب داخلي.. مما كان يؤمن لها بعض العزلة أحياناً، إذ كان غافن يلازم غرفته عدة ليال متتالية وكانت تود أن تبحث معه مسألة المنامة هذه، لكن، من الطبيعي أن تجد صعوبة في طرق موضوع كهذا..

الغرفة التي أعطيت لها كانت فخمة الأثاث، توحي زينتها بالإسراف والذوق الممتاز... ساتان بلون الزهور، يغطي الفراش والنوافذ معاً، نافذتان تطلان على جانبي الفيلا، وثالثة تطل على الباحة الرئيسية.

وقفت تتأمل ما حولها، فوجدت نفسها تتقبل الوضع بارتياح. وسألت نفسها بعجب، ما إذا كانت قد بدأت ترغب في أن يكون زوجها دائماً بجانبها.. كان موقفاً لا مجال للجدال فيه، إنها لم تكره مؤخراً أية مناسبة جاء فيها إليها.. بل على العكس، كانت تسعد لمجيئه.

استدارت لسماع وقع قدميه ودخل، وشاهدت سالي عينيه السوداوين تجولان في الغرفة وهو يتقدم إليها سائلاً...

- أعجبتك غرفتنا؟ إن منظر الغروب هنا خلاّب.. ولا يتشابه أبداً بين

أمسية وأخرى.. وحمرة الغسق هنا قصيرة.. لكن ربما تعرفين هذا؟

ثم نقل اهتمامه إلى زوجته، طافت عيناه على جسدها النحيل ووجهها الجميل أمام أشعة الشمس المتخفضة. وأجابت:

- أعرف أنكم هنا لا تعرفون الأمسيات الطويلة كالتي توجد في انكلترا.

أحست فوراً أنها تتحدث معه وكأنه يعيش هنا دائماً، وكأن هنا بلاده وانكلترا بلادها.. فقد بدا لها فجأة أنه قد تحول إلى يوناني أكثر منه إنكليزي بالرغم من وجوده منذ ساعات فقط هنا. أجابها:

- حتى في الصيف ليس لدينا أمسيات طويلة هنا. وأعتقد أنك ستجدين شيئاً جذاباً في التغيير.. نحن نتناول العشاء بعد الظلام دائماً.. وهذا يبدو لي أكثر تمدناً من العشاء في ضوء النهار.

لاحظت سالي استخدامه لكلمة «نحن» التي خرجت من فمه بشكل طبيعي، يربط فيها نفسه باليونان ومرة أخرى أحست أكثر بغربتها.

نظرت إليه قائلة:

- أرادت فيونا أن تفرغ لي حقائبي.. لكنني أفضل أن أفعل هذا بنفسي.. هل هذا تصرف خاطئ؟

هز رأسه نافياً وقال:

- تتوقع فيونا أن تفعل هذا بنفسها.. هل رأيت غرفة الملابس؟ هناك خزانتان أيضاً فيها.

- لا.. لم أرها.. أيقود الباب الآخر إلى الحمام؟

- أجل.

صمت ينظر إليها، ثم قال بهدوء:

- تعالي إلي سالي.

أطاعته، كما كانت تفعل حين كان يأمرها أن تأتي إليه.. كانت تفكر بكولن، الذي لم يُظهر يوماً نزعة ما للسيطرة بأية طريقة كانت.. لكن غافن مختلف، يعطي الأمر بهدوء، وبثبات، ويتوقع من زوجته الطاعة

والخضوع.. احتواها بين ذراعيه، وانحنى يعانقها. ولم تتمالك إلا أن تتساءل عن سبب تصرفه هذا، فهو لا يفعل هذا إلا ليلاً، حين يدخل عليها الغرفة. ولسبب تجهله، كرهت تصرفه، وتلوت مبتعدة.. فالتمعت عيناه، وأمسك بذقنها في يده، يجبر رأسها على الارتفاع.. نظرت في عينيه السوداوين، وكل عصب فيها ينتفض.. عناقه كان استعراضاً متعمداً ليؤكد سيطرته المتعجرفة عليها.. وخضعت.. بطريقة ما بدأ وجه كولن يطوف بذهنها. وتذكرت لطفه ورقته معها حتى كادت تصرخ ألماً لخسارتها، لكنها استمرت في الخضوع لزوجها ولسيطرته، محاولة الشعور بالرضى بين ذراعيه..

أخيراً تركها، وابتسم قليلاً لاحمرارها:

- علينا أن ننزل الآن.

بدا لها أن تنهيدة من الندم خرجت مع الكلمات.. فرفعت نظرها إلى وجهه، وعرفت على الفور أن بإمكانه أن يحب وأن يكون عاطفياً. ففيه الخصال اليونانية الأساسية، التي أعطت هذا الشعب سمعته كجنس بشري محب شغوف.

- أريد الاغتسال وتغيير ثيابي، بإمكانك النزول دوني

- سأنتظرك.

راقبها تدخل الحمام، ثم تخرج لترتدي فستاناً قطنياً دون أكمام.

- يريد نيكولاس معرفتك أكثر. لقد تحدث بإعجاب عن جمالك وهنأني على اختياري لك كعروس.

كانت كلماته عادية بالمقارنة مع نظرات عينيه، اللتين لم تفقدا بعد الشوق الذي ظهر فيهما منذ دقائق، قالت سالي وهي تضع فرشاة شعرها على زجاج طاولة الزينة:

- لطف منه أن يتحدث عني هكذا.

- إنه رجل صادق، وستعرفين هذا، لا يقول شيئاً لا يعنيه.

- أمن المهم أن يعجب جدك بي؟

- بالطبع، مهم جداً سالي.

نظرت إليه: مهم جداً؟

لم يرد. فتذكرت شيئاً سمعته.. كشائعة من شخص يعمل في أملاكه.. فأضافت:

- أنت وريثه.. أليس كذلك؟

ساد صمت طويل لفترة في الغرفة، وتساءلت ما إذا كانت قد أخطأت القول.. لكن لم يكن هناك أي لوم في صوته حين قال:

- نيكولاس غريب الأطوار، كان يرغب في جعلي وريثه لو تزوجت وأنجبت ابناً.

دون تفكير قالت:

- إذن.. لقد استغليتني؟

برقت عيناه بقسوة.. إنه نطعاً يوناني أكثر منه إنكليزي، فارتجفت دون إرادة منها.

- قلت لك إنني أريد ابناً.. وقلت كذلك إن في الأمر أكثر من هذا..

وأظن الأمران مرتبطان.. أنا أرغب في وريث لأملاكي في انكلترا.. إلا أنني لست مهتماً بشكل خاص بثروة جدي. وريثه الحالي شاب عابث مسرف، لكن نيكولاس لن يغير وصيته لصالحي إذا وجد أن الثروة ستنتقل أخيراً إلى غريب.. فلا أقارب لي لجهة أمي.

- بإمكانه إعطاؤها إلى أبناء عمك الذين ذكرتهم.

- بإمكانه هذا، كما نصحته منذ زمن، لكنني قلت إنه غريب الأطوار.. ويريد ترك ماله دون مساس كما أنه لا يريد نفسيمه.. والله يعلم إن كان هناك ما يكفي عشرة ورثاء!

نظرت إليه سالي بحيرة:

- قلت لتوك إنك لا تهتم بثروته.

- أنا لا أهتم.. لكن، من ناحية أخرى، أفكر به كثيراً، وأريد إسعاده في أواخر أيامه.. فاليونانيون هكذا، وأنا أحس أنني يوناني خاصة الآن..

نيكولاس قلق جداً حول ذلك الرجل، الذي جعله وريثه.. فقد بدد أكثر من ثروة في القمار حتى الآن، ويعرف نيكولاس أنه سيبدر كل ثروة ليانوس بنفس الطريقة، وبالطبع لا يريد لهذا أن يحصل. لهذا أصرّ عليّ أن أكون وريثه لو تزوجت وأنجبت ابناً.

فكرت سالي.. وتذكرت كيف تذمر غافن حين سألته عن أبناء عمه فمن الواضح الآن أنه كان يفكر بهذا الابن العم.

نزلا معاً إلى الطابق السفلي، حيث كان نيكولاس يجلس على كرسي من الخيزران على الشرفة المغطاة بالزهور. فنجان قهوة في يده، وفي الأخرى سيكارة. بدا مسيطراً جداً، والواضح أنه يعيش حياة سعيدة.

- آه.. هذه أنت سالي عزيزتي..

صفق بيده يستدعي بيتروس، الخادم وقال:

- القهوة.. والبسكويت.

كانت سالي تفضل الانتظار حتى العشاء، لكنها لم تعترض. وتحدث غافن لجده، بينما اكتفت هي بالاستماع، وإجالة النظر حولها إعجاباً بجمال ما يحيط بها، أخذ الغروب ينشر لونه الملتهب في كل مكان. كانت التلال صفراء رقراقة تحت أشعة الشمس المنخفضة، وحتى البحر الهادىء الساكن، أصبح مصبوغاً بلون الكهرمان والزعفران الدافىء.

انبعث أريج الزهور ليملأ أنف سالي.. ثم أصوات.. كأنها موسيقى «البوزوكي» الحزينة يحملها الهواء من جهاز راديو في مكان خلف التلال حيث تنتشر بضع فيلات، بسطوحها المسطحة البيضاء، وكأنها بيوت للدمى في صورة من كتاب للأطفال. وغاصت الشمس وراء البحر في وهج شديد كلمعان الذهب والبرونز الأحمر، تاركة قوساً في السماء بكل الألوان.

سمعت سالي اسمها فاستدارت عن هذا المنظر الرائع، وتابعت الحديث، وبكل دهشة علمت أن نيكولاس يمكن أن يكون متحفظاً ساعة يشاء، لكن هناك إحساس معين فيه جذب اهتمامها، وعرفت أنهما

سيكونان صديقين.

وأثناء العشاء، أخبرهم نيكولاس أنه يتوقع وصول الثنين من أحفاده في اليوم التالي.

- ستعجبك مارولا، لكنني لست واثقاً من أمر هيليوس. إنه وسيم جداً.. ومعظم النساء يجدنه جذاباً.

إذاً هذا هو الرجل الذي تحدث عنه غافن، الوريث الحالي لأموال نيكولاس. وسألت سالي عن مارولا فقيل لها إن عمرها تسعة عشر عاماً، سمراء، وجميلة. وإنها مخطوبة إلى رجل من أثينا، رجل أعمال يكبرها بسنوات، وان هذه الخطوبة مدبرة، وفهمت سالي على الفور أن الفتاة لم تقبل بالخطوبة بإرادتها، بل أن نيكولاس مارس عليها ضغطاً كبيراً، وعرفت من زوجها فيما بعد أن هذا الضغط كان فيللا ضخمة فوق موقع «سوتيون» الساحر، ومبلغ كبير من المال، ومساحات شاسعة من بساتين الليمون.

أحست سالي بالاشمئزاز من فكرة الزواج المدبر ومن الباتنات المدفوعة.. ووافقها غافن، لكنه قال إنه سيمضي وقت طويل قبل أن تتغير هذه التقاليد.. وسألت وهما يجلسان في غرفة نومهما:

- ألا يمكن أن يسمح لها بالزواج عن حب؟

- الحب؟ قد يمنح لها اختياراً حراً.. لكن الحب؟ لقد أعطيتك رأيي بالحب.. إنه أمر مبالغ به منذ أيام آدم وحواء، واستنفذ.

- إنني أشعر بالأسف لكل من لم يعرف الحب.

- لا حاجة لك للأسف عليّ. لم أفتقده يوماً، ولن أفتقده في المستقبل. لدي كل ما أحتاجه.. زوجة تفهمني، ولا طلبات لها لا أستطيع أن أليبها.

تقدم نحوها فتراجعت، وامتدت يده لتمسك بيدها، فتحركت دون مقاومة نحوه ليحتضن جسدها النحيل بين ذراعيه ويضمها إليه.. وسمعته يتفوه بكلمات يونانية، فشعرت أنه يوناني.. أجل يوناني، أمسكها

بإحساس ويداه الدافئتان تضمانها بحنان لم تعهده من قبل.

أخيراً أبعدها عنه ينظر إليها نظرة غريبة:

- عزيزتي.. الوقت متأخر جداً.

دخل غرفة الملابس، فتقدمت سالي إلى النافذة. فتحت الستارة ووقفت تنظر إلى السماء حيث النجوم تتلألأ كالألماس، والقمر صاف يرّاق فوق خلفية حمراء قانية.. لقد قيل لها إن القمر في اليونان فريدمن نوعه.

فتحت الباب الزجاجي لتخرج إلى الشرفة، نسيت زوجها وهي تتمتع بالصمت والهدوء حولها.. فكرت سالي بالحاضر الذي تعيشه وأحست بالأمان والهدوء يزحفان ببطء إليها جسداً وروحاً. فشعرت براحة غريبة ورمى تفكيرها بكل المشاكل والقلق اللذين تعيشهما منذ زواجها من غافن.. كانت قناعة محددة لا تزال راسخة في عقلها الباطن أن كولن لن يغيب عن أفكارها.. لكنها في هذه اللحظات قد نسيته تماماً ولم يعد في ذهنها سوى الوجود الحاضر، وارتسمت بسمة سعيدة على شفتيها حين خرج زوجها ووقف ورائها، كان يرتدي روب النوم واضعاً ذلك العطر المنعش الذي استخدمه من قبل.. فتنهدت قائلة:

- إنها ليلة جميلة.. هادئة جداً.

لم يتكلم غافن.. وبدا لها أن شعوراً جديداً قد غمرهما.. وربما بسبب سحر المكان.. ولم يرغب أحدهما في الكلام. أحست سالي بالخجل كما يحدث لها غالباً، ليس مع غافن فقط، بل أمام كل الناس أيضاً.. فالخجل كان جزء من طبيعتها.. وطالما أعجب كولن بابتهاج، لكن غافن لم يلحظه أبداً.. أخيراً تمتم

- تعالي سالي، لقد تجاورت الساعة الواحدة.

أمسك بيدها وسارا معاً إلى غرفة النوم.. فجأة أرادت أن تلتصق به.. تقترب منه جداً لكن خجلها منعها وبعد لحظات تركته ودخلت غرفة الملابس، لتعود بعد لحظات لتراه واقفاً عند النافذة، يحدق في

الظلام. استدار لدى سماع خطواتها، ولمحت ابتسامة على شفتيه حين نظر إليها بإعجاب غير خفي.. كم أنه مختلف.. وتذكرت معاملته الخالية من أي عاطفة.. لكن يبدو أن جو اليونان يؤثر عليه بقدر ما يؤثر عليها.

لحظة وكانت بين ذراعيه، جسده القارع يلتصق بجسدها مطالباً بإذعانها.

في الصباح التالي أخذها غافن إلى الشاطىء حيث البحر دافىء، يجذبها إليه. لم يكن هناك غير القليل من الزوار في مثل هذا الوقت من السنة. لكن عدداً من الناس كان يسبح في المياه الزرقاء الصافية أجسادهم البرونزية تلمع تحت أشعة الشمس التي قد ارتفعت فوق الأفق منذ ثلاث ساعات.. استلقت سالي على ظهرها تطفو فوق الماء وتنظر إلى السماء.. ووجدت نفسها تشكر الله على توقفها عن التفكير في الماضي والاعتراف بوجود المستقبل.. كما أكد لها غافن منذ البداية.

أخيراً، استدارت وسبحت حتى الشاطىء، لتجلس فوق منشفة بهيجة الألوان، فرشها غافن لها فوق الرمال البيضاء الناعمة.. اتجهت أفكارها إلى تيم، والحياة الجديدة التي سينعم بها مع أمه، ثم فكرت بوالد ماريا، الذي يواجه بدوره حياة جديدة.. حياة أفضل بكثير من التي عاشها سابقاً ولوقت طويل.. فقد وافقت تينا على الزواج منه والانضمام إليه في كوخه، بعد أن تركت ماريا المنزل، فجأة فكرت سالي ببيتها الصغير الجميل، الذي لا زال خالياً، فرشه وستائره وبضعة أشياء أخرى لا زالت هناك. إنه مؤثث بذوق وحداثة أكثر بكثير من كوخ السيد اندرسلي القديم.. وقد يجذب اهتمامه هو وزوجته.. بقيت هذه الفكرة في رأسها لتخبرها لزوجها لحظة خروجه من الماء.

- غافن.. أيمكن أن نعطي بيتي للسيد اندرسلي؟

لاحظت أنه أجفل لطلبها المفاجىء، فسألها:

- ما الذي جعلك تفكرين بهذا؟

- كنت أفكر به.. وعدم ملاءمة كوخه بالمقارنة مع بيتي الريفي. لأنه سيتزوج قريباً..

التقط منشفة يجفف بها نفسه.. نظرته كانت متأملة، وفي صوته عطف غريب وهو يرد:

- إذن.. أنت لا تمانعين في سكن شخص آخر في منزلك؟

دون شك، طارت أفكارها إلى تلك الأيام المثالية التي عاشتها مع كولن فيه.. تصمم له الديكور، وتمدد السجاد النفيس والستائر، كانت تفرش عشها الصغير آملة أن يبقى عشهما لسنوات عديدة. هزت رأسها، راغبة أن يحصل السيد اندرسلي وتينا على المنزل.. فسيكونان سعيدين هناك، إنها واثقة من ذلك.

- لا.. لا أمانع.. خاصة إذا سكنه والد ماريا وزوجته.. إنهما شخصان لطيفان.

تابع غافن تنشيف جسمه من غير أن يتكلم. ومرت بهما فتاتان يونانيتان، نظرتا إلى غافن بإعجاب.. ثم نظرتا إلى سالي والحسد يحل محل الإعجاب في عيونهما البنية القانمة.. لا عجب أن يطيل الناس النظر إليه.. إنه طويل، رشيق، بشرته بنية ذهبية ورثها من أمه اليونانية، إنه دون شك مثال كامل للرجولة، ومن المؤسف أن تكون قسمات وجهه خشنة هكذا، وفمه الرفيع يعطي الانطباع بالقسوة.. مع ذلك وبطريقة ما.. أدركت سالي.. أن هناك جاذبية معينة في خطوط وجهه.. وأنها جزء من شخصيته، ذات القوة والتفوق.

سألت بعد قليل:

- أيمكن للسيد اندرسلي أن يحصل على المنزل؟

جلس غافن فوق الرمال، يريح جسده ويمدد ساقيه، ثم اتكأ إلى الخلف عاقداً يديه.

- إذا كان هذا ما تريدينه سالي.. أجل، بإمكانه الحصول عليه

رمته بابتسامة:

- شكرا غافن..

كان معظم الأثاث قد انتقل إلى القصر مع أغراض المطبخ ومعظم الأشياء الصغيرة.. وعلمت سالي أن غافن أراد أن يبيعها كلها.. لكنه امتنع عن ذلك مراعاة لها واقترح تخزين الأثاث في القصر، وأكملت:

- يمكنني ترك ما في المنزل له.. أليس كذلك؟

- كما ترغبين سالي.. لكن يجب أن يدفع لك ثمنها.

هزت سالي رأسها رافضة ذلك.

- سأعطيها له.. فلا مال كثير لديه.. فماريا وتيم كانا يستنزفان أجره.

تذكرت سالي أن ماريا قد أخبرتها أن غافن زاد أجر والدها نظراً لوجودها وابنها معه.. وفي مطلق الأحوال.. فهي تنوي أن تعطيه وتينا السجاد والستائر كهدية لهما.. وبذلك يسهّل مسألة انتقالهما، إذا أرادا العيش في منزلها..

- لطف منك أن تعطيهما أشياء غالية الثمن كهذه هدية.

كان ينظر إليها، وكأنه يلاحظ جمالها لأول مرة في حياته. فاستدارت لتشعر أكثر بتركيز نظره عليها، ومرة أخرى ابتسمت له.. ولدهشتها ضحك، وكأنه يتسلى بتصرفها. بالتأكيد بدا سعيداً، أكثر سعادة مما كان قبل زواجهما

وقفا معاً حين قال غافن إن الوقت حان للفطور، الذي كان يتأخر تقديمه في منازل «كليتيس».. للحظات أطال النظر إلى زوجته، من قدميها الصغيرتين الحافيتين إلى كاحليها النحيلين، ثم ساقيها الملفوفين، والخصر والثنايا الجميلة حوله، ليرفع عينيه إلى الرقة والكمال في وجهها.. بدا وكأنه لا يقدر على مقاومة الاندفاع المتهور بأن يمسك بكتفيها، على الرغم من وجود من ينظر إليهما. نظرت سالي إليه، تتساءل ما إذا كانت مخيلتها تصور لها أم أنه فعلاً كان يفتش عن شيء، في عمق عينيها.. شيء يأمل أن يجده.. أحست بلمسة يديه على كتفيها،

وارتجفت تحت دفئهما.. لا مجال لأن تنكر بأن مداعباته لها كانت تؤثر فيها بطريقة مختلفة تماماً عن التي عرفتها مع كولن.. أخيراً قال، قاطعاً السحر الذي علقا فيه معاً:

- تعالي، لا بد أن جدي استيقظ من نومه الآن، وينتظرنا على الفطور.. أجاهزة أنت؟

- أجل.. جاهزة.. إ فالسباحة كانت رائعة، وفتحت لي شهيتي!

التقط المناشف عن الرمل، ونفضها، ثم وضعها على ذراعه، ومعاً سار هو وزوجته بصمت مشترك لطيف، من الشاطىء إلى الفيلا بجدرانها البيضاء اللماعة ونوافذها الزرقاء الشاحبة، والزهور المتفرقة. برزت الحديقة الجانبية أمامهما وهما يقتربان.. حديقة مليئة بشجيرات مزهرة مترهرعة تحت أشجار الأرجوان.. أوراق شجر الزيتون الفضية كانت تلوح في النسيم الصباحي المندفع إلى البساتين من البحر.. التلال كانت مورقة خضراء، والفيللات البيضاء قابعة في مرتفعاتها الهادئة.. كل ما في الجزيرة هادىء وساحر، وتذكرت سالي أنها وصفت كقطعة من الجنة.. ووجدت نفسها توافق بكل قلبها مع هذا الوصف المميز.

تنهدت راضية، إحساس رقيق ناعم يتحرك ليحيا داخلها.. دافىء، مثير، وغامض.. لم يكن إحساساً قوياً، بل مجرد ارتجاف نبض.. وربما في إدراكها أنها قد تسعد..

أدار رأسه نحوها، وكأنما اضطر لهذا بدافع من اهتمامها به، حين التقت عيونهما.. ابتسم، وردت عليه سالي بابتسامة مماثلة. سمح لعينيه أن تتجولا على جسدها الرقيق، الذي زاده جمالاً ورقة تفصيل الفستان.. الذي يبرز جمال عنقها، إلى الشفتين المرتجفتين، ثم إلى الأعلى حيث شعرها الذهبي كهالة من نور حول وجهها الجميل.

قال قاطعاً الصمت الذي كانا فيه في خضم شعور مكهرب، يؤثر عليهما حقاً:

- آن لنا أن ندخل.

أمسك بذراعها، يقودها بعيداً عن الظليلة نحو العمر.. الليلة كانت ساكنة صامتة، ما عدا تمتمات حفيف الشجر، مع تحرك الغصون والأوراق أمام الريح.. ورنين موسيقى من التلال البعيدة فوق القرى النائمة.

• • •

٦ ـ شيء في القلب

وقفت سالي قرب بركة السباحة، تنقل عينيها من الحدائق إلى الشاطىء الذي تحيط به أشجار النخيل، والبحر الساكن العميق وراءه... مرّ أسبوع منذ وصولها وغافن إلى اليونان، وإلى جزيرة «كوس». كان أسبوعاً رائعاً، وما من يوم يمر، إلا وكانت تتذكر فيه كلمات غافن أنها كانت تعيش على الذكرى، وقوله لها بحزم إنها لا تستطيع العيش هكذا لما تبقى من عمرها. عرفت الآن أن الحياة تحمل السعادة لها، وأن لا حاجة لأن يبقى طيف كولن يلاحقها إلى الأبد، يعذبها بذكرياته مرت ومضت.

لكنها تعرف أيضاً أن للمعلومات التي فاجأتها بها ماريا شأن كبير بتغيير أفكارها وتصرفاتها نحو الماضي والزواج.. كانت تتذكر دائماً أن ماريا لو رغبت أن تتزوج بكولن، لتخلى عنها بكل تأكيد.

كان نيكولاس مبتهجاً سعيداً بزوجة حفيده. لكنه كان يربكها بسؤال متى سيأتي ابن حفيده فتحمرّ خجلاً، وتقول إنها ليست واثقة، فيترك المسألة لترتاح. لكنه يوناني مثالي في هذا، فقد كان ينظر دائماً إليها كلما التقيا.. ولاحظ هيلين هذا وضحك فيما بعد وهو يقول لها:

ـ رجال اليونان يهتمون فقط بالزواج والمال. ألست غاضبة من نيكولاس ونظراته المتفحصة لك؟

أحست لورين أن عليها تجاهل سؤاله فغيرت الموضوع.

حين قابلته لأول مرة أحست أن فيه ما يجذب.. لكنها فيما بعد غيرت رأيها ورأت أنه ما عدا طلعته الحلوة، لا شيء فيه ذا قيمة، كان دمثاً أعزب خالٍ من الهموم، يتحول بسهولة إلى مضجر لكل من يكون في صحبته طويلاً. كان عديم المسؤولية تماماً. ولا عجب أن يضطرب نيكولاس

www.liilas.com

ويخشى أن يبدد ثروة لياتوس. . كان له عدة أصدقاء انتهازيين يعتمدون عليه، وكان يعمل في المكتب الرئيسي لشركة بواخر جده في أثينا، لكن ليس في المركز الذي يحس نفسه أنه ملائم له. ومن الواضح أن نيكولاس لا يثق به ولا بعمله. . وفي الواقع، ذهب غافن إلى أثينا ليقضي ليلتين هناك ليتفحص فيهما دفاتر الشركة ووثائق أخرى، ويقدم تقريراً إلى نيكولاس.

كان هيليو يعيش في أثينا، في شقة فخمة تطل على «الأكروبوليس» وكان يعتقد أن من حقه أن يصرف بسخاء، فهو حفيد مليونير. . ولكان ثرياً بنفسه لو لم يصرف ثروة أبيه خلال أربع سنوات من تركها له، فلا عجب إذاً أن يقرر نيكولاس أن يجعل غافن وريثه الجديد.

أدارت سالي رأسها لسماعها وقع خطوات على حصى الممر خلفها. . وتقدم غافن نحوها ببطء. فلتته يفكر بزيارته الأخيرة إلى أثينا، ولأول مرة أحست برغبة أن تكون موضع ثقته. . كما كانت تحلم لو أن زواجهما كان على أساس حميم أكثر.

نظر إليها برضى وكأنه أحب الفستان الواسع بدون أكمام الذي ترتديه:

ـ لوحدك؟ ظننت مارولا معك.

ـ ذهبت في نزهة. . وأحست أنها تفضل أن تكون لوحدها. . فلم أقترح الذهاب معها.

ـ ألاحظ أنكما متفقتان تماماً!

كان غافن يرتدي بنطالاً بنياً رقيقاً، وقميصاً أبيض يزيد من سمرة وجهه وذراعيه. . يقف متكاسلاً يحدق ببركة السباحة. . وفي الواقع ما من أحد يمكن أن يظنه غير يوناني، ترددت سالي لحظات ثم أجابت:

ـ أجل. . نحن متفقتان. . مارولا فتاة ساحرة. . لكنني أشعر أنها ليست سعيدة تماماً.

نظر غافن إليها عابساً:

ـ ليست سعيدة؟ بأية طريقة؟

ـ ذلك الزواج المدبر. . لا شأن لي فيه، أعرف، لذلك لا يجب أن أهتم به.

ـ لكنك مهتمة؟

ـ أظنني قلقة. . إنها فتاة حلوة طيبة. . ومن العار إجبارها على الزواج من رجل لا تحبه. . لن تفهم هذا غافن، فأنت لم تحب يوماً. . ولا تؤمن بالحب ولا بأهميته للزواج. . .

لهجتها كانت حزينة، لكن لم تكن ذكرى كولن سبب حزنها. . . رفعت وجهها لتنظر إليه. . كان في عينيه تعبير غريب، أحست لو أنها قادرة على قراءته، لكشف لها عن أمور لا تتوقعها.

أخيراً قال لها:

ـ في اليونان، الزيجات المدبرة مقبولة. . وكلا الفريقين ملزمان بقرار والديهما أو أوصيائهما.

تجهمت سالي لسماعها هذا:

ـ لكن لمارولا والدان. . ويبدو أن جدها هو المسيطر بالكامل على مصيرها.

ـ تظهرين الأمر بشكل درامي. . والدا مارولا فقيران لذلك فهي تعتمد على نيكولاس لتقديم «الدوطة» والتي بدونها لا يمكن أن تجد زوجاً، على الأقل ليس زوجاً مثل بيدروس. . فهي محظوظة، فلا تضيعي وقتك في إبداء الشفقة التي لا تحتاجها.

ـ لا زلت أشعر أنها تفضل لو اختارت زوجها بنفسها.

ـ وهل ذكرت لك هذا؟

هزت سالي رأسها:

ـ لا. . لم تقل هذا صراحة، ولكن هكذا يبدو كما أعتقد.

ـ يجب أن تكوني أكثر دقة سالي.

ـ إنها لا تتكلم أبداً عن خطيبها. . الفتاة المخطوبة عادة لا ترغب في

الحديث إلا عن خطيبها.. حتى أنها لم تصفه لي.

- أين هي الآن؟

- أظنها عند الشاطىء، قالت إنها ذاهبة لتتمشى قليلاً هناك.

عبس غافن، وتساءلت سالي، إذا شعر مثلها أن ريما مارولا تقلبل شخصاً آخر، فهي بالتأكيد لم ترغب في مصاحبتها... ولا رغبت بذلك بالأمس ولا من قبله.

قال غافن بصوت متشدد حاد:

- على الفتاة أن لا تخرج لوحدها.. كان يجب أن تصرّي على مرافقتها.. وأظن من الأجدى أن تحاولي إيجادها.

لمعت عينا سالي باحتجاج:

- ماذا تعني أن الفتاة يجب أن لا تخرج لوحدها؟ وماذا ستقول لو ذهبت لأجدها؟ أنا لن أرغب في أن يفتش أحد عني إن عبّرت عن رغبتي أن أكون بمفردي.

- وهل أبدت رغبة في أن تكون لوحدها؟

- لا.. لكن كان واضحاً أنها لا تريدني أن أذهب معها.

ساد صمت قصير قبل أن يقول:

- حين قلت إن الفتاة لا يجب أن تخرج بمفردها، كنت أعني الفتاة اليونانية.. فهذا غير مسموح هنا. ولسوف توسم بالعار لمدى الحياة لو شوهدت مع رجل.

شهقت سالي.. كانت تعرف أن العديد من البلدان الشرقية لا زالت تتمسك بهذه الأفكار.. لكنها لم تتصور أبداً أن شيئاً كهذا يمكن أن يستمر لليوم.

- توسم بالعار مدى الحياة؟ يبدو لي هذا وكأنه قول مأثور في قديم الزمان، غافن..

- لو شوهدت تتحدث مع رجل، وعلم خطيبها بالأمر، لفسخ الخطوبة على الفور.

- إذاً، فهو لا يثق بها؟ هذا أمر لا يصدق!

- إنها ليست مسألة ثقة، بل عادات. فالعادات سالي، كالعرف أهم بكثير من القانون الفعلي.

- أتوافق على هذه العادات غافن؟

- أعتقد أن فيّ ما يكفي من دم يوناني لأوافق.

- أنت تذهلني!

شبح ابتسامة ارتسم على شفتيه:

- بدأت تتعرفين عليّ جيداً سالي.. وأنا أيضاً أتعرف على أشياء عنك

في الوقت نفسه

نظرت إليه بحدة، شاعرة بالخجل المتصاعد إلى وجنتيها ما الذي يتعرّفه عنها؟ وهل أعجبه ذلك؟ ولماذا تهتم إذا أعجبه الأمر أم لا ؟

سألته بعد قليل متخلية عن موضوع مارولا

- ستذهب ثانية إلى أثينا؟

- ليس هذا الأسبوع ربما في الأسبوع القادم سآخذك معي هذه المرة. أظنك ستعجبين بالعاصمة

أحست بالجذل فجأة:

- ستأخذني؟ سيكون هذا تغييراً رائعاً شكراً لك غافن

رفع حاجبيه دليل العجب

- تغيير؟ أبدأت تضجرين هنا؟

- أبداً. أحب المكان هنا، فهناك الكثير ليشغل المرء به وقته. سباحة ومشي واستكشاف

- يتوقع نيكولاس مني أن آخذك إلى أثينا سأكون مشغولاً بالطبع لكنني واثق أنك ستجدين ما يشغلك

- هل ستبقى ليلة؟

- بل ربما ليلتين أو ثلاثة

ابتسمت له، وانفرجت شفتاها وهي تبتسم. شعره الذهبي يتلاعب به

www.liilas.com

الربح.. شعرت بتغير ما في وجهه، لكن عيناه بقيتا قاسيتين، غير مفهومتين... أصبحت فجأة مشتتة الأفكار.. تبحث في قلبها عن شيء ما.. دون أن تعرف ما هو.. قال لها زوجها:

ـ أظن.. من الأفضل أن تذهبي وتجدي مارولا.. لا بد أنه مضى على ذهابها وقت طويل.

أشار بيده إلى «الشاطىء»، ثم إلى البحر التركوازي الصافي والتلال المرتفعة المغطاة بأشجار الصنوبر المتأرجحة بالنسيم العليل.. أرادت أن تعارضه، لكنها غيرت رأيها، أمام تعابير وجهه.

لدهشتها، سرعان ما التقت بها بعد بدئها بالمسير فوق الشاطىء.. كانت تمشي وشعرها الأسود يلوح في الهواء خلفها، ولوحت مارولا لها من مسافة بعيدة.. كم كانت تبدو صغيرة.. شاحبة وضعيفة.. لكنها كانت عصرية بملابسها ومظهرها، وبالرغم من أن والديها فقيران نسبياً، كانت ترتدي أجمل الملابس، وأحدث الموديلات، وأغلاها ثمناً.. وعلمت سالي أن جدها هو الذي يوفر لها كل هذا.

ابتسمت وهي تقترب من سالي، التي سألتها، مرتاحة لأنها وجدتها بسرعة:

ـ هل تمتعت بنزهتك؟

ـ كانت رائعة!

لمعت عينا مارولا السوداوين بطريقة حالمة أقنعت سالي أنها لم تكن تتمشى لوحدها.. وسألت:

ـ وأنت ماذا كنت تفعلين سالي؟

ـ أتجول بين الحدائق.

ـ تحبينها.. أليس كذلك؟

ـ كثيراً.. أحب كل شيء في هذا المكان.

ـ أنت لم تشاهدي شيئاً من الجزيرة بعد.. يجب أن تطلبي من غافن أن يأخذك إلى «الأسكليبيون» إنه مكان رائع قطعاً!

ـ

ـ أتوقع منه أن يأخذني إلى هناك على كل حال.

واستدارتا تسيران معاً نحو الفيللا.. أصبحتا صديقتين فجأة وفي مدة قصيرة لا تصدق.. كلتاهما صامتتان مستغرقتان في التفكير كانت سالي تتساءل عن إمكانية أن يكون لمارولا صديق فبكل تأكيد ستجد صعوبات جمة لو قررت أن تتبع ما يمليه عليها قلبها، حتى غافن سيكون ضدها، فقد اعترف أن فيه ما يكفي من دم يوناني ليوافق على العادات القديمة التي لا تزال موجودة في هذا البلد.. نظرت سالي إلى الفتاة اليونانية، فإذا كانت تحب شخصاً غير خطيبها، فسرعان ما ستفضي إليها بسرها وهي الصديقة الجديدة لها وكانت سالي على حق. فقد سمعت مارولا إليها تلك الأمسية بعد العشاء لتطلب منها أن تتمشيا معاً في الحديقة

بالرغم من أنها بدت مترددة إلا أن التصميم كان واضحاً في صوتها

ـ لدي شيء أقوله لك سالي يجب أن أتحدث إلى شخص ما وأرجو أن لا تمانعي أن تطلعي على سري

اضطرت سالي للابتسام

ـ لا بالطبع لا

لكنها شاهدت الصعوبات أمامها، فهي مضطرة لكتم ما ستعرف عن زوجها وعن نيكولاس معاً ابتعدتا عن أضواء الفيللا، في العتمة الناعمة والهواء النقي الممطر. الليلة كانت لذيذة، الجو الرائق الشفاف المنعش يخدّر الأعصاب

بدأت مارولا تتكلم

ـ أنا مخطوبة، كما تعلمين لكنها خطوبة مدبّرة

ـ دبّرها جدك؟

ـ أجل، أساساً لا بد أنه يبدو رقيقاً لك، لكنه يحب كثيراً أن يدير حياة الناس سالي

اختفت فجأة الخفة التي اعتادتها سالي في صوت مارولا، وأخذت خطواتها تخف بالتدريج. كانت غابة من الشجيرات أمامهما دانجها

نحوها لتكمل:

ـ لم يكن لي رأي في خطوبتي.. دُبرت حتى قبل أن التقي بيدروس..

وقفت سالي، وعلى وجهها نظرة عدم تصديق:

ـ قبل أن تلتقيا! هل أنت جادة مارولا؟

سألتها مارولا بمرارة:

ـ لم تسمعي بمثل هذه التقاليد؟

ـ أعرف بالزيجات المدبرة.. لكنني لم أكن أعرف أنهم يمكن أن يجبروك على الزواج من شخص لا تعرفينه أيضاً!

بدأت مارولا التحرك ثانية، ومشت سالي إلى جانبها

ـ يجب أن أكون صادقة.. أنا لم أجبر على الزواج من بيدروس.. لكن إذا لم أتزوجه، سيلحقني العار لما تبقى من حياتي. ليس بالنسبة لنيكولاس فقط، بل أمام كل أقاربي.. وأنا أكرهه جداً سالي..

صمتت مارولا.. آخر كلماتها كانت تحمل لكنة غريبة أكثر من المعتاد، فهي تتحدث الإنكليزية بطلاقة غافن باليونانية.

ـ أتحبين شخصاً آخر؟

كان مجرد سؤال، ولكنه أمر واقع. فأدارت مارولا رأسها الأسود الشعر لتحدق بسالي في نور القمر. سألت ورنة صوتها مزيج من الدفاع والارتباك

ـ كيف عرفت؟

ـ بالغريزة.. تساءلت لماذا لا تريدين مني مرافقتك في نزهاتك في الأيام الأخيرة.. واليوم جئت إلي وأنت سعيدة جداً.. وأدركت أنك واقعة في الحب

ـ لكن ليس مع خطيبي؟

ـ لا.. بالتأكيد مارولا.. أترين، أنت لم تتحدثي عنه أبداً، وهذا غير طبيعي

ـ كنت مع ستيفان اليوم.. جاء إلى كوس لأنني هنا

ـ ألا يعيش هنا إذاً؟

ـ لا.. بل في أثينا.. نحن نرى بعضنا بانتظام

ـ ألست خائفة مارولا؟

ـ أحياناً، وأحياناً أخرى أحس أنني يجب أن أتحدى الجميع

ـ هل من الممكن لك أن تتزوجي ستيفان؟

ـ طبعاً، لكنني سأوصم بالعار لفسخي خطوبتي مع بيدروس.. أحياناً أحس بالعجز سالي! ولست أدري لماذا أقضي إليك بهذا، لكن كان عليّ أن أتكلم.. أترين.. ستيفان نافد الصبر، ولا أحد يلومه.. يمكن أن يذهب إلى جدي في الغد لو تركته يفعل، ويطلب منه الزواج مني

تجهمت سالي وقالت:

ـ إنه موقف محرج

وقفت مارولا تنظر إليها

ـ لو كنت أنت.. ماذا كنت فعلت؟

أحست سالي بالحرج. تعرف دون أدنى شك أنها ستسير إلى حيث يقودها قلبها، لكنها لم تكن تنوي أن تكون سبباً لأن تفعل مارولا مثلها. القرار يجب أن يكون لها وحدها، دون تأثير من أحد. قررت باعتذار

ـ لا أستطيع الإجابة على هذا مارولا

ابتسمت الفتاة بشحوب

ـ أنت خائفة من الرد؟ لقد أجبتني على السؤال سالي.. ستتزوجين بمن تحبين. أرى هذا في عينيك

لوت بسمة مريرة شفتي سالي.. وتساءلت ما قد تقول مارولا لو عرفت أنها لم تتزوج غافن لأجل الحب، وأن لا ذكر للحب في حديثهما.. لكنها لم تستطع سوى أن تقول:

ـ عليك أن لا تتسرعي في التصرف

مرت لحظات صمت قبل أن تتكلم مارولا. صمت لا يقطعه سوى

www.liilas.com

بـ «زيزان الحصاد» في أشجار الزيتون والصنوبر.

- أعتقد، في النهاية، أنني سأفعل كما تفعل باقي الفتيات، وأطيع أوامر الكبار.

بدت مسحة من اليأس على وجه سالي:

- إذا كان هناك شيء أستطيع أن أفعله.. لست أدري ما أقول.. مارولا.

- لا شيء تفعلينه أو تقولينه سيساعدني.

انتزعت مارولا غصن شجر وأخذت تلويه بين يديها دون وعي.. ثم صاحت، وقد أفلتت سيطرتها على نفسها:

- وماذا سنفعل؟ هل أتزوج شخصاً لا أحبه... سيكون الجحيم سالي!

كلمة الجحيم أجفلت سالي، لم تكن تتوقع سماعها من مارولا.. قالت تنصحها بعد تفكير عميق.

- أشعر أن عليك أن تقولي لجدك عن الشاب الآخر. هذا ما سأفعله لو كنت في موقفك.. افعلي هذا، مارولا، قبل أن يفوت الأوان.

سألت متى موعد الزواج، وشهقت حين علمت أنه مقرر في العاشر من حزيران، فسارعت تقول محذرة:

- لا وقت تضيعينه إذاً.. وعلى أي حال، لن يحصل ضرر حقيقي من الاعتراف أنك قابلت شخصاً آخر.

- سيسألني كيف قابلته.

- أجل.. أمامنا هذا.. من المفترض أن لا تقابليه. أوه لكن الأمر كله سخيف!

ارتجفت الكلمات على فم مارولا:

- أحس برغبة في الهرب. فكرت مرة أن أتوسل إلى غافن ليساعدني. فهو نصف إنكليزي، وللإنكليز أفكار متحررة.. لكن غافن يتحول إلى يوناني كامل حين يكون هنا، مع جدي. وأحس أنه لن يتعاطف معي.

- لا.. لا أظن من المفيد الاعتماد عليه لمساعدتك.

بدت مارولا مفكرة:

- إنه قاسي.. لكن.. هناك أوقات يكون فيها رقيقاً بالفعل.. ماذا أقول؟ أنت زوجته، ولا بد أنك تعرفينه.. أكثر من الكل.

رقيقاً.. أجل، لقد رأت الكثير من رقة غافن!

- أظننا يجب أن نعود.. لقد مضى على وجودنا هنا فترة طويلة.

- أجل.. لم أفعل ما هو جيد، في إفضاء سري إليك. أليس كذلك؟

- ربما أراحك هذا قليلاً.

علمت أن هذا تصريح في غير محله! ماذا يمكن أن تفعل؟ أحست أن عليها القيام بمحاولة لمساعدة صديقتها الصغيرة.

وصلتا إلى الفناء الخفي للفيللا حين شاهدتا طيف زوج سالي، يخرج من الباب الزجاجي المفتوح لغرفة الاستقبال. وقف ينتظر وصولهما إليه، ولاحظت سالي التعبير القاسي الذي كان ينظر به إلى ابنة عمه. تكلمت مارولا بسرعة وكأنها تحاول منع أي سؤال منه قد يحرجها:

- كانت نزهة جميلة غافن

لكنها فشلت.

- لماذا تأخرتما هكذا؟

التفت إلى زوجته، لكنها كانت مصممة أن لا يعرف شيئاً منها، فأشاحت برأسها. أكمل:

- لا بد أنكما تحدثتما طويلاً.. أتساءل عما تكلمتما؟

ظهر في عيني مارولا رعب مفاجيء، وقالت:

- لم يكن شيئاً مهماً.

- لا؟

- كان.. فقط.. فقط.. كلام.

توقف صوتها معلقاً وهي تبحث عن كلمات تخفي بها الحقيقة. لكنها

لم تجد شيئاً فقالت:

- سأدخل عمت مساء سالي، وأنت كذلك غافن.

اختفت حتى قبل أن يرد أحد منهما. هذا ما ترك سالي في موقف حرج. فهي تعرف دون أدنى شك أن زوجها سيسألها.. فقد أدرك فراسة تصرفات مارولا.

- إنها ليلة جميلة.. هل تتمشى قليلاً؟

صوته كان خفيفاً مصراً، وعرفت سالي أنه يريد أن يتحدث.. فقبلت مرغمة.. وفتشت عن أجوبة لأسئلة قدرت أنها ستأتي، فجأة تمنت لو أن مارولا لم تنشأ.. لكن هذه طريقة جبانة للنظر إلى تفه الفتاة.. وبدأت تفكر بإمكانية تغيير رأي زوجها لصالح مارولا، متذكرة تأكيدها، بأن هناك رقة خاصة في غافن أحياناً.

تمشيا بصمت لفترة، الهواء بارد منعش يلفح وجهيهما.. كانت سالي لا تزال ترتدي فستانها الطويل، وأحست بالهواء يتلاعب به.. لم تكن بحاجة إلى ما تلف به كتفيها، فمع أن النسيم قد بدأ يهب من جهة البحر، إلا أن الجو الصافي كان لا يزال دافئاً ناعماً.

أخيراً، جاء السؤال، نلفظه بصوت هادئ.. ولكن بخشونة كانت تميز صوته

- لماذا أرادت مارولا الخروج معك إلى هنا سالي؟

دون تردد أجابت:

- لتتمشى

- لتتوقف معاً عن المراوغة.. أيمكن؟

توقف غافن عند طفيلة صغيرة، وقف هناك دون حراك، تصرفه جعل كل عضب في جسم سالي يتوتر:

- سأسألك مباشرة ما إذا تحدثت مارولا عن خطوبتها، وستجيبين بصراحة مسائلة

ساد الصمت، وعرفت سالي أن غافن أحس أن لمارولا صديق.

- أجل.. تحدثنا عن خطبتها

- و؟

- ليست سعيدة بها.. لكنني قلت لك إنني أشك في هذا غافن.

- أليها شخص آخر؟

اضطرت للاعتراف بأن هذا صحيح، لكنها تابعت تقول بالحاح آملة أن يكون مؤثراً:

- ألن تفضحها غافن.. ؟ أرجوك قل إنك ستحفظ سرها!

كان متجهماً بشدة، وقال:

- لا يفيد هذا سالي.. يجب أن تتزوج بيدروس.. إنها تقابل ذلك الرجل، وسيلحقها العار إذا عرف أحد بالأمر

- أعرف هذا.. لذلك يجب أن تحفظ سرها.

صمتت سالي، خائفة أن لا يرضى عن استخدامها لكلمة «يجب»، على أي حال، كان مستغرقاً في التفكير لدرجة لم ينتبه للكلمة، ثم قال:

- يجب أن أكلمها.. ستدمر حياتها إذا لم تكن حذرة

- ستدمرها إذا تزوجت الرجل الخاطئ!

فجأة ملأ الغضب نفس سالي.. كيف يمكنه أن يفكر بكل شيء ما عدا المشاعر؟ لقد تزوج غافن بدون حب، بدون أدنى عاطفة، لكن هذا ليس سبباً لأن يظن نفسه قادر على جعل الآخرين يفعلون مثله

نظر إليها وقال بخشونة:

- هذا موقف لا يمكنك فهمه.. وأرجو أن تتذكري أن لا تستخدمي هذه اللهجة في الحديث معي ثانية

- أنا آسفة

- صوتك متصلب أكثر منه آسف

صمتت بحذر، لم تكن ترغب في إثارة غضبه، أو حتى اضطرابه

- أقالت لك من هو ذلك الرجل؟

ترددت طويلاً قبل أن تقول والتوسل في صوتها:

- لا أستطيع الإجابة على هذا غافن.. ما أعنيه أن مارولا وثقت بي، ولو استطعت لأبقيت كل شيء في نفسي. لكن، كان من الواضح أنك تعرف.. أو أنك خمنت.. لذلك كان لا فائدة من المراوغة، كما قلت تماماً. لكنني لا أستطيع قول المزيد.. أتفهم؟

نظرت إليه، وبساطة دافئة حلوة في تصرّفها. مما دفع بتعبير غريب إلى عيني زوجها.

- أتفهمك.. ومن ناحية أخرى سالي.. من واجبي أن أستخدم سلطتي لأتأكد من أن ابنة عمي لن ترتكب غلطة قد تندم عليها طوال حياتها.

- ألك سلطة عليها؟

- كابن عم لها.. أجل، بالطبع.

- لكن ليس أبوها..؟

- بطريقة ما، هما مسؤولان بالكامل، لكن نظراً لواقع أن نيكولاس جعل من نفسه المسؤول الكامل عن «دوطة» مارولا، فقد انتقلت معظم السلطة له. فاختار لها زوجها دون تدخل من أبويها.. وهو سينقل معظم مسؤولياته وسلطاته لي.. وهذا سبب طلبه مني المجيء إلى هنا.. إنه يرغب بترك زمام المسؤولية عن أعماله لي.

أحست سالي بالسعادة لثقته بها، وإسراره لها بشؤونه.. بدا أن هذا يقربه منها أكثر. وأكمل:

- وبما أنني ذراعه اليمنى الآن.. فأنا سأتولى مسؤولية مستقبل مارولا. ويجب أن تتزوج من بيدروس.

صمتا معاً للحظة ثم سألته عن رأيه إذا كان بيدروس زوجاً مناسباً لمارولا.. أجاب بصراحة:

- أنا لم أقابل الرجل أبداً.

- لم تقابله؟ كيف تعرف كيف هو إذن؟

- من رأي نيكولاس أنه رجل مستقيم.. ثري ومحترم..

قاطعته:

- كم عمره؟

- أعتقد حوالي الأربعين.

- إنه كبير جداً لها.

نظر إليها مطولاً:

- اهتمامك جدير بالإطراء سالي.. لكن لو تقبلين نصيحتي وتحاولين إبعاد مشاكل مارولا عن تفكيرك.

- إذاً أنت.. تعترف أن لديها مشاكل؟ حسناً.. أعتقد، غافن، أنك على الأقل يجب أن ترى بيدروس هذا قبل أن تجبرها على الزواج منه.

شيء في لهجتها أثر عليه، فبدا أقل عناداً.. أدركت سالي أنها قد تكون حصلت على فرصة، وضغطت على وجهة نظرها قائلة بما أنه يسيطر على مستقبل مارولا، عليه على الأقل أن يرضي نفسه بأن خطيبها شخص مرغوب. وأكملت:

- تذكر، أن نيكولاس عجوز، وقد لا يكون قادراً مثلك على تقييم شخصية الرجل..

تغيرت تعابير وجه زوجها، وقال لها متسلياً:

- أتغازلينني عزيزتي؟ لن يوصلك هذا إلى أي شيء.. كما أخشى

احمرّ وجهها، تتساءل لماذا لكلمة «عزيزتي» مثل هذا الوقع الحلو على سمعها.. كما أن تعابير وجهه الهادئة كانت أمراً نادراً ما رأته من قبل. إنها تشعر بأمور جديدة بدأت تعجبها.

- لم أكن أتعمد مغازلتك أو إطرائك.. كنت فقط أقول أمراً واقعاً غافن.

طريقة ربطها يديها على بعضهما دون وعي منها، وصوتها المتوسل، تضافرا في التأثير به بطريقة لم تؤثر عليه فيها من قبل. وسمعته يقول باستسلام مرح:

- إذا كان هذا يرضيك سالي.. سأجعل شغلي الشاغل مقابلة بيدروس

حين تسافر إلى أثينا في الأسبوع المقبل.

- ستفعل! أوه غافن.. شكراً لك! شكراً لك كثيراً!

- لا أعدك بشيء.. ولا تظني للحظة أنني سأوافق على فسخ الخطبة.. هنا في اليونان، هناك مراسيم دينية للخطوبة، كما يجري للزواج تماماً. لذلك اعلمي أن الخطوبة لا يمكن فسخها بسهولة.. بل الواقع أنها ستسبب لغطاً كبيراً.

- بسبب أن مارولا هي حفيدة نيكولاس أليس كذلك؟

تردد قليلاً، ثم لدهشتها قال:

- أظن أننا سنطلب منه العشاء معنا في الفندق. سيكون لك ساعتها أمسية كاملة لتقييم الرجل المسكين.

تجاهلت المرح في صوت زوجها.. فتفكيرها كان ينصبّ على ما قاله وليس على طريقة قوله.. أحست أنها واثقة أن غافن سيصغي إليها إذا قالت إنها لا تعتقده مناسباً كزوج لمارولا.. وسمعته يقول بعد هنيهة:

- تعالي، لنتمشى قليلاً قبل أن نعود.. نيكولاس يتوقع منا أن نغيب ربع ساعة بعد على الأقل.

التلميح واضح، نيكولاس يعتقد أنهما يحبان بعضهما.. وأن الحديقة، وضوء القمر، المكان المناسب للأحبة..

سارت سالي مع زوجها في الممرات الظليلة، المليئة بالرائحة الزكية المنبعثة من أزهار الربيع المزهرة في مساكب عريضة مزينة.. كان البحر يعطيه القمر لوناً فضياً..

التصقت سالي بزوجها.. كانت حركة غريزية، قامت بها بدون وعي.. ونظرت إلى صفحة وجهه، الواضحة التقاطيع أمام الضوء الخفيف المنبعث من القمر.

* * *

٧ ـ على درب الغيرة

طارا إلى أثينا، وطلب غافن تاكسياً ليوصلهما إلى الفندق.. ورأت سالي لأول مرة «الأكروبوليس» ومعبد أثينا القديم «الباثينيون» وخلفهما جبل «هيمتوس». تنهدت:

- يبدو رائعاً! لطالما تصورته هكذا.. هناك سحر مرتبط بالأكروبوليس.. لم أتوقع يوماً المجيء إلى أثينا.

- لكنك لم تسافري أبداً من قبل، أظن هذا ما قلته لي.

- أجل.. أنا لم أسافر.

- السفر وسيلة رائعة للتثقيف إضافة إلى السعادة التي تسببها.

تعجبت سالي لتفكيرها كيف انحصر بالحاضر والمستقبل فقط. بدا لها من المستحيل أن يصبح تفكيرها بهذا الصفاء حتى أنها أخذت تنعم بكل ما يحيط بها.

الفندق كان في غاية الفخامة، كما توقعت. غافن دائماً يريد الأفضل.

قال لها بعد أن استقرا في جناحهما:

- يجب أن أخرج بعد الظهر. استأجري تاكسياً للتجول إذا رغبت. وأرجو أن أعود لأكون معك حوالي السادسة هذا المساء.

نظر إلى ساعته:

- إنها الثانية عشرة والنصف فقط.. سنتناول الغداء، ثم أخرج. هل ستكونين على ما يرام؟

كان يخرج بذلة بيضاء خفيفة يعلقها في الخزانة. أجابته:

- أجل.. طبعاً.. سآخذ تكسياً الى الاكروبوليس أولاً.. بعدها سأتمشى على الأرجح. وأتفرج على الآثار، وربما على المحلات.

- المحلات رائعة هنا.. فيها الكثير من الثياب العصرية، وأشياء

هزت رأسها إنها لا تفكر بشراء الثياب، فحيرانتها امتلأت إلى حد الإفراط ولأجل زيارة اليونان فقط اشترى لها العديد من الفساتين. ولقد أصرّ على هذا. وحين حاولت في البداية التوفير، أمرها أن لا تفكر بالأسعار بل أن تشتري كل ما هو ضروري.

افترقا بعد الغداء. استقل غافن سيارة تاكسي، واستقلت هي أخرى. وبعد حين ما وصلت مقصدها، وقفت لفترة على التراس تحت الرواق المعمد للمدخل، الذي كان في الأزمنة القديمة المدخل المقدس الذي تقوم عليه المعابد. كان الباعة المتجولون يعرضون على السياح نماذج بلاستيكية للمعابد، أو لأحد الآلهة التي كان وثنيو اليونان يعبدونها إضافة إلى مناديل مزخرفة محلية ومفارش.

تركت المنظر المثير للاهتمام لتشق طريقها صعوداً على درجات «البروبيليا» إلى جانب الكثير من السياح. إذا كان الأمر هكذا في بداية السنة، فكيف يكون في وسط الموسم؟

مرت أخيراً عبر البوابة الضخمة للبروبيليا، وشهقت على الفور أمام الجمال الصرف للمكان. معبد جبار كان مخصصاً لآلهة القوة «أثينا» ابنة ملك كل الآلهة الوثنيين «زوس». الجو هنا ساحر بالرغم من الزحام. الهواء كان له صفاء مميز يختلف عن هواء «كوس». الموقع نفسه يمتلك سحراً. كما توقعته سالي، وأكثر.

من البانيون، تمشت عبر العديد من الممرات المتساقطة والكثير من الأطلال الأثرية، حزينة لتماثيل جميلة غاية في الدقة. من هناك تابعت السير دون هدف لفترة، ليقف بصرها قرب جدار المعبد تتمتع بالمنظر الباهر للمدينة.

وهي تقف قريباً من المعبد، تمكنت سالي من الإعجاب بالمنظر البانوراما الرائع، هذه المرة يمتد إلى أسفل المدينة، ثم إلى البحر، امتداداً إلى شبه الجزيرة المرتفعة الجبال «بيلوبونيس» المعروفة بجزيرة

«المورة».

مرت الساعات بسرعة، ولم يعد لها وقت بذكر لأي شيء بعد زيارتها لتحف الأكروبوليس. وصل غافن قبلها إلى الفندق. وكانت تعي مظهرها المغبر بعد الساعات التي أمضتها بين خرائب المعابد القديمة.

كان غافن يجلس قرب النافذة، وسألها:

ـ هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟

تساءلت بدون أن تدري، ما إذا كان هناك امرأة وقعت في حبه من قبل، واعترفت أن هذا لن يدهشها، فهو لا شك يمتلك سحراً يتجاوز الجاذبية العادية.

أجابته بحماس، وهي ترفع خصلة متمردة من فوق جبينها:

ـ أمضيت وقتاً رائعاً. أحببت الأكروبوليس! إنه كل ما كنت أسمعه عنه وأكثر بكثير.

ـ أنا سعيد لأن أملك لم يخب.

ـ كنت أود لو أزوره في الصباح الباكر حين لا يوجد أحد. لكنني تمتعت بالزيارة على أي حال.

كانت سعيدة، وهذا لم يفت اهتمام غافن. لا بد أنها تعيش في جنة زائفة متأثرة بسحر اليونان. أما حين تعود إلى جو القصر المتجهم، فمن الممكن أن تعود إلى التفكير بالماضي.

اتجهت عيناها إلى وجه غافن، ووجدت أفكارها تتغير. لم تعد تظن أنها ستعود إلى الحزن ثانية. فغافن رائع جداً معها. مختلف تماماً عما كانت تتوقعه. على أي حال، ألم تؤكد لها ماريا أنه ليس «بالغول» الذي تصوره الأقاويل؟ لقد وجدت نفسها تعيش بارتياح ومنذ البداية تقريباً، فهو لم يشعرها يوماً بأنها أدنى منه درجة، ولا بكلمة أو تصرف. بل بدا لها ممتناً لزواجها منه، ولأجل هذه الأمور تبخرت كراهيتها له بسرعة لم تصدقها.

سمعت غافن يقول:

- دعوت بيدروس للعشاء هنا مساء الغد.. أما هذا المساء فسنتناول العشاء في الخارج، في مطعم يوناني أعرفه.

الحياء المألوف لفها، وقالت غير واثقة من نفسها:

- سأتمتع بهذا. هل المطعم بعيد من هنا؟

- بالتاكسي.. قرابة الربع ساعة.

- ماذا سأرتدي.. هل أرتدي ثوباً طويلاً؟

- طبعاً، فالمطعم فخم، وإذا أردت أن نذهب إلى «تراثيرنا» عادية، سنفعل هذا وقت الغداء غداً.

- ألن نخرج في الغد؟

- لبضع ساعات بعد الغداء فقط.. عملي سيتم بسرعة وينتهي وسنمضي وقتاً في النزهات معاً

- ألن نعود إلى كوس فور؟

- لا.. قررت أن أعطيك قليلاً من وقتي، وأن أجول بك في البلاد..

- يبدو لي هذا مثيراً!

هز غافن رأسه، وبدا مستغرقاً في التفكير بها، وكأنه يرى أشياء لم يرها من قبل. أخيراً قال، وتغيير طفيف في طبقات صوته:

- أنت مختلفة سالي.. أخبريني، هل كنت على حق حين قلت إنك ستتعلمين أن تعيشي ثانية؟

- أجل غافن، كنت على حق.. فأنا الآن أتمكن من تقدير الجمال، وهذا نسيته سابقاً، فقد كان كل شيء يبدو لي كئيباً قاتماً.

- ما كنت ترغبين في رؤية الجمال، كنت تكرهينه لأنه يقف بينك وبين الذكرى.

فكرت قليلاً وأجابت:

- أنت محق، أجل، لكنت كرهت الجمال، أو أي شيء يقف بيني وبين الذكرى.

أصيبت بالذهول لاعترافها هذا، لكنها كانت صادقة بما يكفي

للاعتراف بالحقيقة. وهز غافن رأسه برضى. لكنه لم يعلق بشيء آخر وبعد هذا بقليل، أخذا ينحدران للخروج كما خطط غافن.

المطعم الذي أخذها إليه، كان على تراس يشرف على المدينة. جوانبه مفتوحة، سقفه من التعاريش المتشابكة. بين أوراق التعاريش خبئت مصابيح تعطي أنواراً لطيفة. الزهور والشموع كانت تزين كل طاولة مغطاة بقماش أبيض كالثلج. أدخل غافن وزوجته إلى طاولة معزولة، قادهما إليها ساقي يرتدي معطفاً أزرق.

الموسيقى كانت هادئة، والديكور هادىء كذلك، قالت سالي بصوت مسموع بعد أن نظرت جيداً حولها:

- إنه مكان جميل غافن.. أكنت تأتي إلى هنا دائماً؟

- لا.. مرة أو مرتين.. جئت فيهما مع مارولا

مارولا! خطر ببال سالي فجأة أنه لمن الغريب أن لا يحاول نيكولاس تدبير زواج بين حفيده وابنة عمه. فالعائلات اليونانية الثرية، غالباً ما تدبر الزيجات بين أبناء العائلة الواحدة، كي لا تخرج الثروة إلى الغرباء. يبدو أن حتى نيكولاس القوي العزيمة، لم يستطع استخدام غافن في لعبة يحب أن يلعبها

وصل الطعام. وكان عبارة عن مجموعة متنوعة من اللحم المشوي على الفحم، ومثبل بالسلطة اللذيذة والصلصة التي تسيل اللعاب وكتحلية طلب غافن الخوخ الأحمر والدراق. أخيراً جاءت القهوة، مع طبق من الحلوى اللزجة لم تستطع سالي أن تلمسها. وقالت لغافن وهو يمرر لها الطبق

- لقد اكتفيت! شكراً لك غافن لهذه الأمسية الرائعة

ابتسم لها ابتسامة حملت الدفء الرائع إلى قلبها. وأحست بالسعادة، لكن كم ستبقى، إنها لا تدري، ولا تهتم بالتفكير بهذا فالأمسية لم تنته بعد وهي تنوي التمتع بها حتى آخر لحظاتها. جاء الراقصون مجموعات صغيرة، انضموا إلى بعضهم بمناديل معقودة وأخذوا

يقفزون ويدورون على رقصة «سارتاكي زوربا».

بعد الراقصين، جاء دور الغناء، قدمت مغنية لحناً باليونانية، ترجمه غافن لسالي بصوت ناعم. وأضاف بعد أن أنهت الفتاة أغنيتها وخرجت وسط تصفيق حاد:

- إنها أغانٍ حزينة يؤدونها.. وكما شرحت لك تدور هذه حول رثاء حب ضائع، يفترق فيها حبيبان مخلصان في الحب، لأن أقارب الفتاة قرروا زواجها من رجل اختاروه لها.

توجهت أفكار سالي إلى قريبته مارولا، وتساءلت بحزن ما إذا كانت ستجبر على قبول ما دبّره لها جدها، ورغبت أن تتطرق إلى موضوعها لكنها قررت تأجيل الكلام إلى ما بعد لقائها مع بيدروس.. مع أنها لم تكن لتشك لحظة أن هذا اللقاء قد يغير وجهة نظرها، إذ يجب أن يسمح لمارولا أن تتزوج بالرجل الذي اختاره قلبها.

قاطع غافن أفكارها:

- أنت هادئة جداً.. ما الأمر؟

ابتسمت، مدركة أنه يظن أنها تفكر بكولن، وحبها الضائع.. ولسبب لا تعرفه، رغبت أن يعرف أن أفكارها لم تعد ترجع إلى الماضي.. فقالت بسرعة:

- كنت أفكر بنظام «الدوطة» غافن.. وتحطيم القلوب الرهيب الذي لا بد كان ينتج عنه.

أذهلها رده

- موافق.. يجب أن يمنع هذا بالقانون.

هل بدأ يغير أفكاره حول الحب وضرورته بالنسبة للزواج؟ دون شك هناك تغيير أساسي فيه هذه الأيام.. بدا ضائعاً في جمال مظهرها، وأحست بالسعادة لاعتنائها الجيد بزينتها، كي تكون متأكدة أن لا يجد فيها ما ينتقده.

أخيراً حان وقت الانصراف.. وكانت سالي متعبة، وتثاءبت مراراً..

حتى أن غافن مازحها مداعباً حين أحنت رأسها على كتفه وهما في التاكسي:

- لست أدري إذا كان يجب أن أخرجك للسهر مرة أخرى.. تبدين وكأنك كان يجب أن تنامي منذ ساعات.

كانت الحياة لا زالت متوهجة في المدينة وهما عائدان إلى الفندق.. الضحك والثرثرة تعالى بين الناس الجالسين على طاولات الرصيف يأكلون الكباب عن النار مباشرة، أو يلعبون «التاولي» ويدخنون بدون انقطاع، ويقف الرجال حول اللاعبين يتفرجون.. كان كل شيء مثيراً بالنسبة لسالي، يعطيها صورة عن حياة الليل اليونانية في العاصمة.

أخيراً أصبحا في غرفتهما في فندق «الغراندبريتان» أحد أكثر الفنادق أناقة في أثينا، وسألها غافن:

- هل تمتعت بوقتك؟

كان بنزع عنها معطفها، فابتسمت في وجهه الأسمر، تتعجب كم هو منسجم مع جو اليونان.. إنه يوناني أصيل، لا شك في هذا أبداً وأجابت بإخلاص:

- أحببت كل لحظة غافن.. شكراً لك لأخذي إلى السهر

- شكراً لك أنت عزيزتي لصحبتك الطيبة.

خرجت الكلمات منه بنعومة، صوته يخلو من الخشونة المعتادة فازداد عمق ابتسامتها، واحمرّ وجهها

- أنا سعيدة لتمتعك بالسهرة

أخذ الحياء يزحف إليها وهي تتمنى لو تقترب أكثر من زوجها كي يعرف آلياً أنها تريد الإحساس بذراعيه حولها ما الذي يحدث لها ويجعلها تحس هكذا؟ لماذا تختبر شوقاً يختلف تماماً عما عاشته من قبل؟

ابتعدت عنه فبالرغم من التغيير الذي حل بتصرفاته نحوها منذ وصولهما إلى اليونان، لا زالت تحس أنه قد لا يرحب بإظهار هذا النوع من الميل العاطفي هز كتفيه غير فاهم لتصرفها، وذهب إلى الخزانة

www.liilas.com

ليعلق لها معطفها، ثم فتح باب الحمام وقال:

ـ سآخذ دوشاً.. ولن أتأخر.

في الأمسية التالية كانا في صالون الفندق حين قال لها

ـ ها هو بيدروس، إلا إذا كنت مخطئاً جداً.

ـ أتعرفه؟

ـ عرفته من صورته.. فهو رجل جميل المظهر.

كان الرجل يتطلع حوله.. فتقدم غافن منه، وما هي إلا لحظة حتى كانت سالي تصافحه. وجلس الثلاثة ليطلب غافن الشراب. بالنسبة لسالي، كان الموقف غريباً.. فقد وجدت نفسها منذهلة تماماً بالوجه الوسيم لبيدروس، لكن في الوقت نفسه أحست بالحرج للطريقة التي كان ينظر بها إليها.. أحست وكأنه يعريها بنظرته.. ومع أنها اعتادت حتى الآن على الطريقة التي يحدق فيها رجال اليونان بكل امرأة تقع عليها أنظارهم، إلا أنها أحست بغضب متوتر من نظرات هذا الرجل

لم يحتفل ببالها، في هذه المرحلة، أن زوجها كان ينظر بدقة إلى الطريقة التي ينظر فيها بيدروس إليها.

أحضرت لهم قائمة الطعام، فطلباه، كان لبيدروس تصرفات ساحرة، تراها جذابة جداً. وكان مهذباً ابتسامته عذبة، لكن بعد قليل شعرت أن كلماته مصطنعة وأنه مغرور بنفسه وفي الوقت نفسه خجولاً قليلاً، وكأنه غير واثق تماماً من نفسه.. سرعان ما قررت سالي أن الحياة معه ستكون مضجرة. لكنها كانت منطقية بما يكفي لأن تعترف أن ما يرضيها ليس بالضرورة ما يرضي غيرها.. مع هذا فقد قررت أن مارولا لن تحب بيدروس. ولا يجب أن تُجبر على الزواج منه.

خلال العشاء تبادلوا الحديث بودية دونما تحفظ، لم تتوقعه سالي.. ولم يعد لديها أي شك أن له طريقة خاطئة في تصرفاته

خاطب بيدروس غافن، لكن عيناه كانتا على سالي. تتحركان طوال الوقت، تتفحصان الخطوط الناعمة لوجهها في لحظة ثم لجسدها في

اللحظة التالية:

ـ أتفكران بالبقاء هنا حتى موعد الزفاف؟

ـ سنعود لحضوره.. في حزيران.

كانت الكلمات تخرج ببطء غريب ينقصها الوعد الثابت.. وكأنما كان يتمتم لنفسه:

ـ هذا صحيح.. لم يعد بعيداً الآن.

بيدروس لم يستطع إبعاد عينيه عن سالي.. على الأقل ليس قبل أن تصل شقراء مذهلة لتحتل الطاولة المقابلة، كانت مع شاب أشقر في أواخر العشرين من عمره، واستنتجت سالي أنهما دائمركيان، وربما مخطوبان أو متزوجان ووجدت نفسها تفتش عن فرصة لرؤية يد الفتاة، لترى إذا كان فيها خاتم خطوبة أم زواج.

بعد أن نقل بيدروس اهتمامه، لم يعد قادراً على إعادته إلى من كان معه على العشاء.. نظرت سالي إلى غافن لترى عبوساً بغضّن جبينه، وأحست بنوع من الابتهاج لمعرفتها أن غافن لم يكن معجباً أبداً بخطيب ابنة عمه.

أخيراً، أعاد بيدروس اهتمامه من الشقراء إلى سالي، وبدأ الحديث يجري مجدداً.

الطعام كان لذيذاً، أعلن بيدروس وهو يسند ظهره إلى كرسيه:

ـ كانت هذه وجبة ممتازة!

ـ أنا مسرور لتمتعك بها.

نظرة غافن كانت تماثل كلماته المتجهمة المتزمتة وبدا هذا ظاهراً عليه. وقف بيدروس:

ـ أتسمحين أن نرقص سالي؟

نظرت إلى زوجها، كان لا زال متجهم الوجه، لكنها لم تعتقد أن بإمكانها رفض دعوة الرقص، فوافقت.

ـ أتحبين الرقص؟

لم تكن قد رقصت منذ وفاة كولن، وقالت:

ـ أجل.. عادة إنه تمرين جيد.

لدهشتها ضحك:

ـ أهكذا تنظرين إلى الرقص؟

أحست أنه متأثر عاطفياً، وسرعان ما اكتشفت ذلك. فقد أكمل:

ـ الرقص، ليس للتمرين، لكن للعناق، هكذا!!

وقبل أن تدرك نواياه، كانت قد التصقت به، وأحست بقساوة جسده على جسدها.. شعرت بإحساس بالغثيان، وأخذت تشدّ نفسها عن ذراعيه القويتين.. الوضع كان بالنسبة لها مقرف.. لكن حين نظرت حولها وجدت معظم الراقصين من اليونانيين حولها متلاصقين هكذا.. وسألها:

ـ وضع حميم.. لا؟

ردت متصلبة:

ـ أرجوك، أود أن أعود إلى الطاولة!

بدت عليه الدهشة:

ـ تعودين؟ ولماذا؟

ـ وجدت أنني لست راغبة في الرقص.. هذا كل شيء.

لكنه تجاهل طلبها، وتابع الإمساك بها ملتصقة به، واقترب أكثر فشعرت بأنفاسه، فارتجفت وفكرت بالمسكينة مارولا. سمعته يقول:

ـ ترقصين بطريقة ممتازة.

ـ شكراً لك.

ردها كان متصلباً، غير ودي، لكن بيدروس كان عديم الإحساس.

ـ أيرقص غافن معك دائماً؟ لم ألتق به قبل اليوم، لا بد أنه قال لك، لكنني أعتقد أنه رجل بارد.. لا؟

إنه سؤال يجب أن تتجاهله.. وللحظات رقصا بصمت وجهه يلامس وجهها.

ـ الجو حار هنا.. وأرى أن غافن مشغول بالحديث مع شخص

يعرفه.. هل لنا أن نخرج إلى الخارج ليضع دقائق؟ لا أظن أن زوجك سيمانع لو خرجنا قليلاً.

الدعوة الناعمة جعلت دم سالي يغلي، فردت ساخطة:

ـ أنا لا أرغب في الخروج.

ـ أنت غاضبة مني.. لا؟ الفتيات يعجبهن أن أخرجهن إلى الخارج بعد الرقص.

الوجه الوسيم أصبح مزيّناً بالابتسامات وعيناه لا زالتا مليئتان بالنوايا:

ـ أنت إنكليزية.. أحياناً تأتي الفتيات الإنكليزيات إلى أثينا في إجازة.. وهن يرغبن بمصادقة الشبان اليونان.

لم تقل سالي شيئاً، كانت تنتظر بفارغ الصبر أن تنتهي الموسيقى، وهذا ما حصل أخيراً، فنظر إليها، ثم إلى غافن، الذي كان يحدث يونانياً سميناً يقف قرب الطاولة:

ـ سنخرج.. لا؟

ـ لا..

مع ذلك تابع إصراره طوال الطريق إلى الطاولة.

نظر غافن إلى زوجته وهي تجلس.. فخفق قلبها بشدة، وبدا لها أنه يجد صعوبة في السيطرة على غضبه. واضح أنه لاحظ الطريقة التي كان بيدروس يراقصها بها.. ما إن أصبحا في غرفتهما بعد ساعة، حتى رفس الباب بقدمه واستدار إليها غاضباً:

ـ ماذا كنت تقصدين من السماح له بعناقك هكذا؟

تراجعت خطوة، ليتقدم نحوها أكثر:

ـ لم أفعل هذا.. لم أستطع منعه غافن.

ـ لم تستطيعي منعه! لا تقفي هكذا تتكلمين بسخافات! كان بإمكانك تركه والعودة إلى الطاولة!

احمرّ وجهها لتعابير وجهه:

- قلت له اني أرغب في هذا!

أحست بالغضب لانهامات زوجها وازدراءه.. وتصاعد غضبها أكثر، كانت تحس أنها مذنبة، وتلوم غافن على هذا.

- أنت غير عادل في لومي على شيء لم يصدر مني!

شهق دهشة

- ليست غلطة منك؟ غلطة من إذن؟.. لم يكن هناك ضرورة لأن تجامليه بتلك الطريقة المقرفة.

- أجامله؟ ما هذا الكلام غير المنصف لي؟ حاولت الابتعاد عنه، لكنه صمم على الإمساك بي ملتصقة به.. هكذا.

ارتعشت وارتها واحمرارها بالحرج الذي أحست به، وارتجفت غضباً وأكمل -

- لم يخطر ببالي فكرة أنه سيكون.. هكذا.. وبهذه الفظاظة.. لكنني لم أستطع توجيه إهانة له.. أيمكن؟

رد دونما تعقل

- ولم لا؟

- لأنه صديق، أولاً.. وثانياً هو خطيب مارولا.

- كلا الأمرين لا يعطيانك عذراً للسماح له بالالتصاق بك كما فعل! كنت عارية

صاحت تقاطعه

- لم أكن هكذا! لا يجب أن تقول أشياء كهذه لي! أردت ترك الفستان وبإمكانك أن تسأله إذا لم تصدقني!

تساءلت ما الذي يجري؟ افترضت أن من الطبيعي أن ينزعج غافن من عناق بيدروس لها لكن تصرفاته هذه ابتعدت كثيراً عن أي توقع. أيمكن أن يغار.. يغار؟ فكرة سخيفة، رفضتها سالي فوراً.. وعاد غافن للكلام، ليقول لها بطريقة مترددة إنه لو حدث مثل هذا مرة أخرى فسيتقدم

إلى باحة الرقص ليخرجها من هناك، وأضاف من بين أسنانه.

- وليس بطريقة لطيفة أبداً.. لذلك راقبي تصرفاتك في المستقبل!

• • •

٨ ـ في ظل الآلهة

فكرت سالي مطولاً بردة فعل غافن على تصرفات بيدروس في باحة الرقص وكلما فكرت بالأمر، كانت تصل إلى ذات الاستنتاج.. إن غافن، تصرف تماماً كزوج غيور...

لكن.. كيف يمكن أن يكون هناك غيرة.. دون حب؟

في الصباح التالي.. كان صامتاً، وغامضاً، لكنه اقترح أن يخرجا إلى «ديلفي».. قال يؤكد لها:

ـ ستكون رحلة رائعة.. ديلفي ليست كأي مدينة أخرى في اليونان.

ذهبا إلى هناك بالتاكسي.. وبعد برهة بدأ مزاجه يتغير، وهو يشير إلى المعالم المختلفة التي كانا يمران بها.. اتجها إلى الشمال الغربي، وهو يشير إلى الخط الساحلي قبالتهما. كانت «سالاميس» و «إيجينا» تطوفان كجوهرتين فوق البحر الهادىء الرائع اللون.. جذب غافن اهتمامها إلى المناظر المختلفة، والسيارة تصعد بهما الجبال نحو منطقة «بارناسوس».

بالنسبة لسالي، كان المكان يبهر الأنفاس. ليس فقط بجمال وعظمة المناظر، بل كذلك بمظهر الأراضي المهجورة.. لم يكن هناك ما يتحرك سوى بعض الحيوانات من وقت إلى آخر، في عالم من المرتفعات المهجورة والوديان الصامتة.

قالت سالي:

ـ إنها أفخم الأماكن التي رأيتها في حياتي!

ـ كنت أعرف أنك ستتأثرين بها. فهي تدخل أعماق المرء..

انظري هناك جبل بارناسوس.

وأشار إلى قمتين مرتفعتين:

ـ كان الأقدمون يسمونها القمم المشرقة.. ونكاد نصل الموقع بعد

قليل.

لكنه أخذها إلى الفندق أولاً، حيث تناولا غداءً لذيذاً على شرفة تطل على «بليسنوس غورغ» ومنظر سهل «إمفيس» المقدس الرائع وراءه.. حيث يتراءى للناظر بحر من أشجار الزيتون روعة وجمالاً.

دخلا الموقع الأثري عبر «الطريق المقدس» وأشارت سالي إلى مدرجات المسرح:

ـ هل نصعد هذه المدرجات؟ أود الصعود إلى القمة، فلا بد أن المنظر رائع من هناك.

وافق غافن، فأمسك بيدها وأخذا يصعدان معاً، كانت لمسة هادية، لكن سالي شعرت بالسعادة، وبالدفء. كانت مغتبطة بحضورها وإياه إلى اليونان.. فهناك أمر ما حدث لهما منذ وصولهما إلى هنا.. كما أنها اعترفت لنفسها أنها تحس بأن الحزن صار في طيات الماضي. فقد كانت تعيش رافضة تقبلها لقدرها. أما الآن، فها هي تحيا محدداً، وترى الإشراق والجمال حولها، تحس الدفء في قلبها، وتترقب المستقبل بشوق، بدلاً من العزلة والاستسلام للوحدة القاتلة.

مزاج غافن المتوتر تلاشى، وهما يصلان القمة فوق المسرح، ويجلسان، رأت أن هذا وقت ملائم لفتح موضوع خطبة مارولا.

قالت وهو يصغي إليها باهتمام:

ـ لا أظن أن بيدروس رجل مناسب لمارولا، غافن، وأنا واثقة أن هذا هو رأيك كذلك.

ذكر بيدروس جعل غافن يقطب حاجبيه، لكن بدون غضب حقيقي.

ـ وماذا تقترحين سالي؟

ـ أقترح.. على الأقل، أن تقابل ذلك الشاب الآخر.

ـ لكنها لم تذكر ذلك الشاب لي.

ـ لا.. فهذا كان سيربكها.. وستردد بإخبارك حتى ولو سألتها أو أبديت لها بعض التفهم.

راقبت سالي تعابير وجه زوجها وشعرت بالتفاؤل لمستقبل ماروﻻ إذ بدا غافن متردداً حول استمرار الخطوبة الحالية.. والموقف يختلف تماماً عن الذي تبناه سابقاً، حين بدا غير مكترث بتعاسة ابنة عمه.

قالت سالي، تدافع عن وجهة نظرها، إنها قد تقنع ماروﻻ، بأن تتقدم إليه أو إلى جدها، وتعترف بحبها لرجل آخر.

رد غافن بهدوء:

- المشكلة هنا.. أنها لو ذهبت إلى نيكولاس، لأراد فوراً أن يعرف كيف التقت بذلك الشاب.. وسيسألها إذا كانت تقابله.

عبست سالي وقد فقدت صبرها:

- الأمر كله سخيف..! ما شأن نيكولاس أو أي شخص آخر، إذا كانت ماروﻻ تقابل شاباً آخر؟

- لا حاجة للجدال في هذا.. فلا بد أنك أصبحت تعرفين أن ماروﻻ ترتكب حماقة قد تجلب العار ليس لها فقط بل لأهلها. أتعرفين أن الأمهات في بعض القرى يتجولن مطأطئات الرأس لشعورهن بالعار إذا ارتكبت بناتهن الحماقات؟

شهقت سالي:

- الأمهات! لا أصدق.. هذا غير معقول!

- هناك تقاليد في الشرق سالي، أسوأ بكثير من هذه.. وماروﻻ في موقف حرج جداً، وتعرف جيداً أنها قد تعاقب بشدة لمقابلتها شاب لوحدها.

- لوحدها؟ ألا يمكن مساعدتها إذاً؟ أحس بالاشمئزاز للتفكير بأن الأم لا تستطيع الثقة بابنتها.. خاصة إذا كانت فتاة مثل ماروﻻ.. إنها أهل للثقة!

رفع رأسه وابتسم، بينما احمر وجه زوجته:

- أنت جميلة جداً وأنت غاضبة.. على أي حال، فلندع الإطراء حالياً.. ولنعد إلى مسألة ماروﻻ..

- إذاً.. أنت لست سعيداً بترك الأمور كما هي؟

ساد صمت صغير قبل أن يرد:

- بكل تأكيد لم يعجبني بيدروس.. لكنني لا أعد بشيء، فلا تنظري إلي بتفاؤل هكذا.. بالرغم من كل شيء، هذا شأن نيكولاس الخاص، وليس شأني.

- لكنك سابقاً قلت إنك ستتولى مسؤولية أمور كثيرة عنه.

هز رأسه موافقاً.. لكن، لم يكن في تصرفه ما يشير إلى قرار ثابت.

فتنهدت سالي بخيبة أمل. لقد اعتقدت أنها كسبت المعركة، وأن غافن سيوافق على فسخ خطوبة ماروﻻ.. لكن الأمر ليس بهذه البساطة، كما أدركت الآن.

هكذا، نزلا درجات المسرح المدرج ثانية، واتجها نحو معبد أبولو، حيث كان كهنة «الباثيا» يتعبدون، ويفسرون مظاهر الطبيعة كنبوءة تُعطى للشخص السائل.

رفعت سالي وجهها إلى زوجها تطرح سؤالاً:

- هل تصدق أن الناس كانوا يسطاء إلى هذه الدرجة؟

- في تلك الأيام عزيزتي، الجميع كان يؤمن بهذه النبوءات، فكهنة «الدلفي» كانوا اكثر الناس هيبة واحتراماً في اليونان كلها

- أنا أعتقد أن الكهنة كانوا مخادعين؟

ضحك غافن بعفوية، واتهمها أنها ساخرة.

- واضح أنك تؤمنين بأن الكهنة كانوا محتالين.. يخترعون الأشياء.. حسناً.. لكن هدايا الزبائن الشاكرين.. أعطت «الدلفي» ثراء جعلها أغنى مكان في اليونان.. واضطروا لبناء خزائن لتأوي تلك الكنوز التي كانت تتدفق عليها بدون انقطاع.

- مع ذلك، فقد تلاشت.

كان في صوتها حزن، وهي تتأمل جمال خزائن الاثينيين، التي كانت رائعة المنظر.

- وماذا حدث لكل التماثيل الرائعة، والنصب الأخرى؟

- دمرت على يد أمثال «سولا» و«نيرون» وأبعدت الآن التماثيل..

إضافة إلى الحملات التي جاءت من القسطنطينية، واستولت على كنوز لا تقدر بثمن.. وبالطبع كانت النهاية مع تحريم «ثيودوسيوس» لعبادة الأوثان.. فماتت سلطة «ابولو» وتدمرت «الدلفي».

- لا يبدو لي هذا ممكناً.

كان صوتها لا يزال حزيناً.. وسمعت غافن يقول إن عبادة الأوثان كانت ستنتهي بسبب انتشار المسيحية السريع.. لكنها بقيت على حزنها، تتمتم لنفسها تقريباً:

- أتمنى لو أنني شاهدتها في تلك الأيام.

أمسك غافن يدها:

- هيا بنا.. لقد أمضينا ما يكفي هنا.. وقد نعود ثانية في مستقبل قريب.

شيء ما في لهجته جعلها تلتفت إليه وتكرر:

- في المستقبل القريب؟

توقف لحظات وقال وهو يستدير إلى «الطريق المقدس» الذي دخلا منه

- قد نعيش في «كوس» بشكل دائم.

- بشكل دائم؟ والقصر والأملاك؟

- يمكن أن أبيعها.

كان صوته خالياً من العاطفة وفيه تصميم فشعرت سالي أنه يفكر جدياً ببيع كل ما يملك في انكلترا.

- هناك أناس كثيرون يتخلون عن بيوتهم

- لكن ليس أملاكهم والقصور غافن

استهوتها فكرة العيش في اليونان.. وعلى الجزيرة الرائعة «كوس» جزيرة الزهور والشمس والناس السعداء خاصة أنه ليس لديها أهل في

انكلترا، ووجدت أن قلبها يخفق بسرعة أكثر من عادته.. كانت مهتاجة أمام هذه الإمكانية التي ستبعدها، على الأقل، عن كل الذكريات التي مرت بها هناك.

عندما جالت هذه الأفكار برأسها، أدركت سالي على الفور أنها بدأت تحب زوجها.

عادا إلى كوس بعد يومين ليجدا أن هيليو ومارولا قد غادراها.. وأن نيكولاس كان متوعكاً قليلاً، لكنه استعاد عافيته.. وسمعته يقول لزوجها، إنه أرسل بطلب محاميه، وإنه أصبح الآن وريثه.

وابتعد الاثنان ليتباحثا سراً.. حين عاد غافن للظهور من مكتب جده بعد ساعتين، قال لها إنه صمم على انتقالهما إلى اليونان قبل انقضاء هذه السنة.

لا شك أنها أدركت ما الذي تغير.. نيكولاس يريد منه أن يتولى إدارة أعماله، وهذا ما يستحيل أن يتم من لندن، لذلك قرر غافن أن يعيش بشكل دائم في اليونان.

سألها غافن في اليوم التالي:

- هل أنت سعيدة لهذا التغيير؟

كانا في سيارة نيكولاس الفخمة، يقودها غافن في طريقهما إلى «الاسكليبيون» مع كتاب دليل، وسلة طعام في مؤخرة السيارة.

- أنا سعيدة جداً.

لم تكن تعني أن سعادتها مردها فقط لتوقعها العيش في اليونان، بل لأنها تعرف أنها ستكون سعيدة في أي مكان من العالم مع زوجها. رده كان قصيراً:

- أنا مسرور لهذا.

ألقت رأسها على مؤخرة مقعدها، واسترخت وهي تتساءل محتارة عن التغيير الذي اعتراها منذ وصولها إلى اليونان.. الماضي.. كولن.. زواجها السعيد منه.. كلها أمور أخذت تتلاشى من أفكارها.. وكانت

بعتقد أنها ستبقى مدى العمر، لكن، وبشكل غريب، وجدت نفسها تعبر أمام هذه الفكرة. فالحاضر والمستقبل هما الآن محور اهتمامها، وغافن يغير كذلك. وأحبت كثيراً فكرة أنه سيقع في حبها يوماً ما بالرغم من نظرته المتزمتة نحو الحب، وأهميته للزواج الناجح.

عادت إلى أفكارها محنة مارولا، فقررت مفاتحة غافن بالموضوع. قال

- سأفعل شيئاً. ستعود ابنة عمي ثانية في نهاية الأسبوع. طلبت من نيكولاس دعوتها

بدا لها هذا مدعاة للأمل:

- أفعلت هذا؟ هل ستحاول دفعها للكلام عن ستيفان؟

- ستيفان؟

كانت قد تركت الاسم يتفلت منها، لكن لم يعد من المهم التكتم الكامل حول ما أفضت مارولا إليها. وأكمل

- إذن هذا هو اسمه؟ وأتوقع أن يكون مفلساً. وإذا كان الأمر هكذا فالصعوبات ستكون أكبر مما أتصور. سالي. أترين الجميع يعرف أنها حفيدة المليونير نيكولاس لياتوس، ومن الحتمي أن يكون مستوى معيشتها مرتفعاً نسبياً.

قطبت سالي حاجبيها. لكنها لم تعلق بشيء. على أي حال كان غافن الآن يسير بالسيارة نحو غابة ضخمة من شجر الصنوبر، وما هي إلا فترة وجيزة حتى كانا يتطلقان نحو حرم «اسكليبوس» إله الطب والشفاء «الإغريقي» الواقع في مكان لا مثيل لجماله، مبنيّ وسط «الغابة المقدسة» لإله الشمس ابولو، قبل ألفين وخمسمئة سنة. النخيل، والصنوبر، والدفلى كانت تنمو حول الموقع، بينما يترامى إلى البعيد، سهل واسع ينحدر إلى مضيق «هاليكارناسوس»

وأشار إليها غافن

- علينا تسلق هذه الدرجات الحجرية لنصل إلى كل مستوى منها.

فهل أنت جاهزة؟

ابتسمت واقتربت منه، فأمسك يدها بيده، لتشعر بقوتها ودفئها. وتساءلت كيف يكون له مثل هذه الأفكار الغريبة عن الحب. إنه الآن يبدو قادراً كأي رجل آخر على إظهار العاطفة، فابتسامته حنونة، وعيناه أرق مما شاهدتهما في أي وقت مضى. وأحست بألم في حلقها، ألم يصل إلى حد اليأس لأنها لا تستطيع أن تكشف له أنها تحبه. أحست أن هذا يفسد لها سعادتها، ليس للبوم فقط، بل لفترة طويلة قادمة.

قال بعد أن تسلقا إلى أعلى الدرجات الصخرية، ووقفا ينظران إلى السهل المغطى بالأشجار:

- أتعلمين لا شك أن أبقراط كان رجلاً سابقاً لزمانه. انظري ما الذي وصفه. التمرين، الهواء النقي، والطعام الصرف، والكثير من الراحة. كان أول رجل يدين السحر ويرفضه مع كل ما يتعلق به من خرافات. لا بد أنه كان رجلاً عظيماً.

- كان بشراً، بالطبع؟

- بشراً؟ ماذا تعنين؟

ضحكت، وكأنها توبخ نفسها:

- يختلط عليّ الأمر بالنسبة لتاريخ الإغريق، فلا أعرف الإله من البشر. أعني لو كان أبقراط سليل الآلهة فكيف يمكن أن يكون بشراً؟

- القدماء كانوا بأنفسهم مشوشين، كما أرى. كانوا يحبون الاعتقاد أن طبيبهم العظيم «أبقراط» كان سليل إله الطب. فسجلوا هذا في أساطيرهم.

هزت رأسها، محتارة:

- كانوا متمدنين وأذكياء جداً. ومع ذلك كانوا يؤمنون بهذه الآلهة

- هل هم مختلفون عن الكثيرين من أهل اليوم الذين يؤمنون بأمثال هذه الآلهة. إنهم يعبدون تماثيل من حجر، تمثل آلهة متعددة للديانتهم

فكرت سالي بهذا، وقالت

ـ الأمر كله مذهل.

سارا معاً دون كلام. كانت الشمس حارة على وجهيهما والهواء كان مليئاً بالروائح الجميلة المنبعثة بشدة، من زهر اللوز والياسمين والورود النامية بين الخرائب في المعابد القديمة، والتي كانا يسيران عبرها، يداً بيد.. كالأحبة الحقيقيين.

أخيراً عادا إلى السيارة، وبعد مسافة قصيرة توقف غافن على طريق مهجورة.. حيث جلسا لقضاء نزهتهما في حقل مليء بالزهور والعشب الأخضر وحيث تنمو أشجار الرمان البرّية.. تمتعت سالي بعد انتهاء الغداء وتوضيب السلة.

ـ سأحب العيش هنا.. فالمكان لا زال على طبيعته الأصلية، أليس كذلك؟

كانت وغافن يجلسان تحت شجرة يتمتعان بالظل. والنسيم يهب من البحر.. رد غافن:

ـ أجزاء منه مخصصة للسياحة.. لكن جزيرة كوس كلها لم تُفسد بعد.

بينما كانا يجلسان هناك، بدأت الشمس بالانحدار، مما جعل السماء تبدو ملتهبة، ترسل الأشعة الخافتة فوق التلال، والوادي.. أما البحر فبدا كمرآة هادئة بلون الورد، كان هناك نوع من الجلال الساكن لا يوصف بكلام.

تنهدت سالي تنهيدة صغيرة، حين قرر غافن أخيراً أن الوقت قد حان لذهابهما.. فسألها:

ـ ما الأمر؟

كان صوته لطيفاً منخفض اللهجة.. فتساءلت إذا كان في مزاج ذكري ملائم لتلقي تعبير عفوي عن حبها له.

لكن لا! هو من يجب أن يقوم بالخطوة الأولى! فإذا كانت تصرفاته قد تغيرت، فمن البديهي أن يجد طريقة ليجعلها تعرف بهذا، لا.. لن تقوم

هي بالخطوة الأولى: هذا قرارها الثابت. وانكفأت خجلاً أمام صورة إذلالها وحرجها فيما لو لم يكن مستعداً لتقبل حبها. ولكن، لم يكن لديها أي شيء ثابت قد يشعرها أن تفكيره بالحب قد طرأ عليه أي تغيير ولو طفيف.

تنهدت ثانية لتقول:

ـ لا شيء.

ثم اعترفت أنها مرتاحة جداً، راضية هنا ترغب لو تقضي الليل كله

فأكد لها:

ـ سنعيد الكرّة.. ولعدة مرات سيكون أمامنا فرص كثيرة لاستكشاف الجزيرة متى عشنا هنا.

دخلا السيارة لينطلقا بين خطوط المغيب التي تغمر الحقول، حيث الأعشاب العطرية، والشجيرات الصغيرة تملأ الجو بأريج لا زمن له

سألته بشيء من التردد:

ـ أين سنقيم؟

وبما أنها وقعت في حب زوجها، فهي بالطبع ترغب أن تكون لوحدها معه، ضمن بيت حميم لهما فقط لكنها كانت تشك بأنه يحفظ للعيش مع جده وأصيبت بالدهشة حين سمعته يرد.

ـ هذا ما تقرره بأنفسنا، وفكرت بما أننا الآن هنا علينا أن نشاهد أية فيللا معروضة للبيع فإذا لم نجد شيئاً، وفضلت أن يبني فيللا خاصة بنا، فسنشتري أرضاً لهذه الغاية

ردت وهي غير قادرة على إخفاء فرحها

ـ أحب أن نبني فيللا خاصة بنا لكن أين سنعيش خلال بنائها؟

ـ بالطبع مع نيكولاس فعلى أي حال لو وجدنا قطعة أرض مناسبة، فستطلب إنجاز الخرائط بسرعة على يد مهندس يعرفه جدي والبناء قد يتم ونحن في انكلترا، نتحضر للانتقال

ـ سيأخذ هذا عدة شهور أعني التحضير للانتقال؟

- إذا كنا نريد بيع كل شيء.. أجل سيستغرق هذا شهوراً.. ربما ثلاثة أو أربعة

- وهل سنبيع كل شيء؟

- ليس الأثاث كله، بل معظمه.. فلدي شعور أنه لا يعجبك كثيراً؟

- أعترف أنه يبدو لي ضخم الحجم.. وبعضه غير جذاب لكن.. ليس بالنسبة لي على أي حال.

- ولا بالنسبة لي أيضاً.. إنه إرث عائلتي منذ عدة أجيال، ويناسب القصر تماماً.. وهذا كل ما يمكن أن يقال عنه.. أشعر بأنني سأتمتع بأشياء أخف وأكثر بهجة من حولي. أما الغضبيات والأنتيكات الأخرى فسنحضرها إلى هنا مع بعض الأثاث.

فكرت سالي: ها نحن نتكلم معاً كأي زوجين عاديين، نخطط لبناء منزلنا الجديد.. وليس في غافن أي شيء يجعلها تحس أنه لا يرغب أن تبدي رأيها، فلا أثر للعجرفة أو التسلط، اللتان كانتا تميزان تصرفاته وتخطيطاته.. بعد فترة قال لها:

- ألديك فكرة عن أي جهة من الجزيرة ترغبين العيش فيها، أنت لم تشاهدي الكثير منها، أعرف هذا، لكنك شاهدت البعض.

- أحب البحر.. وإذا كان هناك موقع على جانب التلال يمتاز بمنظر يطل على البحر، فسيكون كالجنة بالنسبة لي.

ابتسم لها بحنان، وقال بعدها:

- سنرى ما سنفعل.. ولو فكرت قليلاً، أستطيع القول إن نيكولاس يملك أراضي في مختلف أجزاء الجزيرة، سأسأله إذا كان لديه أرض لها المميزات التي ذكرتها.

- فيللته جميلة جداً.. أيمكن أن تبني فيللتنا على التصميم نفسه غافن؟

- فكرة رائعة.. أوافق معك أن منزله مميز، أعتقد أنك معجبة

بالقناطر، والغرف الواسعة المرتفعة السقف.

- أجل.. والشرفة، والفناء الخارجي مع البركة والنافورة.

قال لها برقة ناظراً إليها نظرات جانبية ليرى تأثير كلامه عليها:

- كل هذا يمكن أن نفعله فهل أنت سعيدة؟

اضطرت لابتلاع ريقها بصعوبة قبل الرد، كانت تريد أن تعترف له بالسبب الحقيقي لسعادتها، لكنها قالت:

- سعيدة جداً غافن.. من لا يكون سعيداً وهو يتوقع العيش في منزل جديد رائع على جزيرة يونانية مليئة بالشمس؟

- سيكون لنا فيللا أو شقة في أثينا كذلك.. وسيكون هناك حفلات نقيمها تتعلق بالأعمال.. على أي حال سنفكر بإيجاد شيء في أثينا فيما بعد.. أما الآن فمن المهم أن نستقر هنا أولاً.. في كوس.

أظهر نيكولاس سروره لفكرة بناء فيللا خاصة بهما، وأخرج على الفور عدة خرائط تظهر مواقع قطع الأراضي العديدة التي يمتلكها، ولسعادة سالي، كان هناك قطعة أرض فيها كل المزايا التي طلبتها

كانت سعادة غافن تضاهي سعادتها لإيجاد ما طلباه.

- يبدو لي أن هذه هي الأرض المطلوبة.. من المفضل أن يكون لديك قطعة الأرض المناسبة نيكولاس.

- وهي ليست بعيدة من هنا.

- أيمكن أن نحصل على إذن للبناء دون متاعب؟

- دع ذلك لي، أعرف الأشخاص المناسبين.. اطلب رسم الخرائط في أسرع وقت غافن.. ودعني أتدبر الأمر. فقد يتم بناء منزلك في الوقت الذي تنهي فيه أعمالك في انكلترا.

في وقت متأخر بعد العشاء، جلسا معاً، لوحدهما على الشرفة وقالت له بصوت مضطرب:

- مارولا، غافن.. ماذا ستفعل بها؟ لم يعد لدينا كثير من الوقت

- قلت لك إنني سأفعل ما أستطيع. ستكون هنا في الغد، وسأتأكد من

التحدث إليها.

- شكراً لك غافن.

نظر إليها نظرة غريبة:

- لا تعتمدي على قدرتي في فسخ الخطوبة.. وأخشى أن لا تتكدري كثيراً إذا اضطرت للزواج من بيدروس في النهاية.

- سأتكدر فعلاً.. فهي فتاة لطيفة لأن يحكم عليها بالتعاسة مدى الحياة.

- معظم فتيات اليونان راضيات رغم أنهن لا يجدن السعادة في زواجهن.

هزت رأسها باحتجاج، وصاحت غاضبة:

- هذا أمر مأساوي! أرجوك غافن، لا تدع حياتها تتدمر.

التوسل في صوتها أثر عليه بعمق أكثر مما توقعت. ثم تنهد وقال:

- واضح أن لا فكرة لديك عما يعني فسخ الخطوبة.

كان هناك شيء من نفاذ الصبر في صوته، وعرفت فوراً أن نفاذ صبره هو ضد نظام الزيجات المدبّرة.. وليس ضدها.. هكذا تركا الموضوع، لكن موضوعاً آخر برز بعد دقائق حين قال لها بصوت مضطرب قليلاً:

- نظراً لما أصبحت عليه الأمور.. وبما أننا قادمون للعيش هنا بعد وقت قصير.. أحس أننا لا يجب أن ندع نيكولاس يعتقد أننا نتوقع طفلاً.. فسيصاب بخيبة أمل حين يكتشف الحقيقة.

لم تقل شيئاً لفترة.. نظرت بعيداً، كي لا يرى الاحمرار الظاهر على وجهها:

- لكنه.. قد.. يحصل..

- ماذا؟

ساد صمت قصير بينما كان غافن يسترجع ما قالته:

- أتعنين هذا حقاً؟

هزت رأسها إيجاباً، وهمست:

- أظن هذا.. لكن الوقت مبكر بعد.. لنتأكد.

قام عن كرسيه، وتقدم نحوها، ومد يده ليمسك بيدها، وقفت إلى جانبه ترفع رأسها إليه، أحنى رأسه ليقبل خدها، بحنان أكثر مما فعل يوماً. وسألها:

- أهذا ما أردته، أنت أيضاً عزيزتي؟

- أجل.. بالطبع.

ضمها إليه بلطف وحرارة:

- إذاً.. سنكون جميعاً سعداء.. سعداء جداً.

وصلت مارولا قبل الغداء في اليوم التالي. وبعد الطعام مباشرة سعت إلى سالي وطلبت منها السير معها في الحديقة، خرجتا تحت نظر غافن والرجل العجوز، إلى الحدائق الغناء تحت أشعة الشمس حول الفيلا وما إن وصلتا إلى ظلية متعرشة، حتى وقفت الفتاة والتفتت إليها

- سالي.. يجب أن أحصل على مساعدة.. أنا وستيفان سنهرب معاً!

هزت سالي رأسها بقوة

- تهربان! لا.. لا تستطيعان مارولا! ماذا عن جدك؟ والصدمة التي

- ولماذا أهتم به.. أو بأي شخص آخر؟ أحب ستيفان وهو يحبني وليس أمامنا أي طريق آخر لنسلكه سوى الهرب!

أمسكت مارولا يد سالي بشدة:

- أتساعدينا؟.. أتوسل إليك

قالت سالي بلطف، وبصوت مليء بالعاطفة

- لا أستطيع.. أتمنى لو أستطيع.. لكن هذا مستحيل.. على أي حال، قد لا يكون هذا ضرورياً

صمتت تعض شفتها.. ما كان يجب أن يزلق لسانها.. نظرت مارولا إلى وجه سالي بحدة:

- ماذا تعنين؟.. ماذا تعنين؟

- ما كان يجب أن

صمتت منتظمة لوصول غافن إليهما عبر الشجيرات. وقال متصلباً وعيناه على مارولا.

- لم أقصد استراق السمع. لكنني سمعت ما يكفي كي يجعلني أقرر مقاطعتكما

التفت إلى زوجته.

- على أي حال، كنت أنوي اللحاق بكما لحظة شاهدتك مع مارولا. فقد كان واضحاً سبب خروجكما معاً. أيمكن أن تتركي الأمر لي الآن؟

قالت سالي بهدوء، بينما وجه مارولا كان يسجل مزيجاً من الخوف والحيرة:

- سأنسحب إذاً

نظرت إلى وجه زوجها وهي تستدير مبتعدة، والتوسل بادٍ في عينيها. وأخذت تدعو الله كي لا تذكر مارولا مسألة هروبها. فهذا أمر لن يجد الموافقة عند غافن. ومع أنها مقتنعة أن نظرته قد تغيرت، إلا أنها تؤمن أنه قد يغضب من فكرة هروبها، ويرفض مساعدتها في فسخ خطبتها مع بيدروس.

على أي حال. زالت شكوكها سريعاً، فحين رأت مارولا مرة أخرى قالت لها الفتاة إن غافن وعدها بأن يتكلم مع نيكولاس ليجد معه مخرجاً لفسخ الخطوبة. وأكملت:

- لكن، قد يطلب نيكولاس أن يقابل ستيفان أولاً.

- أهو هنا الآن؟

- أجل. جاء لقضاء عطلة الأسبوع، ليكون قربي وسنلتقي في الغد عند الرأس البارز إلى البحر. إنه مكان اكتشفناه منذ أسابيع.

وكما توقعت مارولا، طلب نيكولاس رؤية ستيفان. قالت سالي حين أخبرها غافن بهذا.

- على الأقل هذا أمر واعد. كنت واثقة أنه لا يرغب حتى في سماع

شيء عن فسخ الخطوبة.

- لكنه بعيد جداً عن تغيير رأيه. فبيدروس هو صفقة زواج مالية ضخمة.

بدا الانزعاج واضحاً عليها، لكنها لم تقل شيئاً. فأكمل غافن يقول إن نيكولاس لم يكن قاسياً كما توقع. إنه يهتم جداً بحفيدته، وأظهر اهتماماً أكبر حين قال له غافن إنها تعيسة.

- أتظن أنك نجحت في هذا؟ هل سيساعدها على الزواج من الرجل الذي اختارته؟

- علينا أن ننتظر لنرى. لقد فعلت ما هو ممكن والقرار النهائي بيد نيكولاس، مع أنه عرف ما أشعر به نحو بيدروس.

اشتد ضغطه على فكه، وعرفت سالي أنه يتذكر تصرفات الرجل المشينة معها حين رقصا معاً:

- إذا كان ستيفان سيلائم الصورة التي أخذتها عنه، فقد يعطي الانطباع الجيد لنيكولاس. وسنعرف النتيجة في مثل هذا الوقت من الغد

- هل ستقابله مارولا وتأتي به إلى هنا؟

- أجل.

- ألم يغضب نيكولاس حين عرف أنها تقابله؟

- فعلت ما بوسعي لإخفاء هذا عنه.

في الصباح التالي خرجت مارولا، ثم عادت بعد ساعة برفقة شاب طويل وسيم، تبدو عليه بوضوح علامة الارتباك. كانت سالي في الحديقة، تقطف الزهور لتضعها على الطاولة فقدمتها مارولا لستيفان أعجبها الشاب فوراً. بدا وجهه صريحاً ومنفتحاً، وعيناه صافيتان حين نظر إليها مباشرة. فصافحته بفرح. كانت إنكليزيته خالية من العيوب وثيابه أنيقة. نقلت نظرها منه إلى مارولا التي كانت شاحبة ولكن جميلة، بشعرها الأسود بلون عينيها، ووجهها الفني ولاحظت سالي أنهما مناسبان جداً لبعضهما.

جرى تبادل مؤدب للحديث قبل أن يسيرا معاً، باتجاه باب الفيلا.

وقالت سالي لزوجها بعد ساعة:

- كان التوتر رهيباً. لماذا تأخر الاجتماع؟

- إن تأخره يعني الأمل.

- صحيح؟

- لو لم يعجب نيكولاس بستيفان لأمر بطرده بعد عشر دقائق من وصوله.

قفز قلب سالي. إذا كان غافن محقاً. فلقد تأمنت سعادة مارولا

- هل سيكون هناك مشاكل مع بيدروس؟

- كثيراً. لكني أستطيع القول ان نيكولاس سيقضي عليها لو أن مارولا نفرت منه فستكون هذه إهانة لبيدروس، ليس فقط أمام أقرباءه بل أمام كل من يعرفه. التفور والرفض لا يحدثان هنا في اليونان على أي حال، يعرف بيدروس أنني لم أعجب به. وقد يقرر الانسحاب بشرف وبدون ضجة.

تنهدت سالي:

- نحن نستبق الأمور غافن. فقد لا يوافق نيكولاس على

وصمتت، بعد أن رأت مارولا وستيفان يخرجان من المنزل. ثم تنفست بانتعاش:

- إنهما.. ينسجمان؟

لوحت لهما مارولا، ثم بدءا الاثنان يركضان إلى حيث يقف غافن وسالي، قرب النافورة. قالت مارولا ببساطة:

- ستيفان سيبقى لتناول الغداء. لقد دعاه نيكولاس!

* * *

٩ ـ خداع الحبيب

كانت سالي تشعر بحرارة يد غافن على مرفقها وهما يسيران من السيارة إلى البوابة الضخمة للقصر.. كان غالباً ما يظهر اهتمامه بها، بهذه الطريقة غير المتوقعة.. وذلك لم يعد يفاجئها فقد أصبحت معتادة على اهتماماته الصغيرة بها، وتفتقدها إن تخلى عنها أو نسي شيئاً منها

نظر غافن إليها مبتسماً:

- حسناً.. لقد وصلنا منزلنا ثانية. أعترف أنني سأحس بالحزن حين أتركه إلى الأبد.

- لا بد من هذا.. لكن هل أنت واثق أنك لن تندم؟

دخلا القاعة الكبرى، ليستقبلهما جايسون بابتسامة عريضة، بانتظار أخذ معطفيهما. وأجاب:

- متأكد تماماً.. أشياء كثيرة تضافرت لتدفعني إلى ذلك، أحدها أنت سالي.. فهذا ليس بالمكان الملائم لأن تكوني فيه مرتاحة على الدوام عرفت هذا منذ البداية.. لكن في البداية لم يكن الأمر يهمني

صمت فجأة، وأدركت أنه كان يتحدث إلى نفسه. وأن كلماته الأخيرة لم تكن موجهة لها.. مع ذلك التقطتها فقد يكون لها علاقة مباشرة مع التغيير الذي حدث لتصرفاته مؤخراً، ليس فقط نحوها، بل نحو الحياة بشكل عام، ونحو مستقبلهما بشكل خاص. نظرته كلها أصبحت مختلفة.. لكنها مع كل هذا لم تكن متأكدة أنه يحبها. فهو لا يظهر أي تعبير عن عاطفته. أحياناً كان هذا يسبب لها الهواجس والشكوك عما إذا كان حبها سيبقى في قلبها طي الكتمان إلى الأبد. لكن في أوقات أخرى، كانت تشعر بالتفاؤل، وتؤكد لنفسها أن الأمر مسألة وقت قبل أن يصل الحب إليه كما وصلها.

بدا القصر متجهماً، مخيفاً من الخارج، لكنه بدا أفضل بقليل من الداخل. صحيح أن بضعة غرف كانت أنيقة ومرتبة بشكل لطيف، لكنها تمثل نسبة صغيرة من الغرف في القصر.

سألت وهما يتناولان العشاء ذلك المساء:

- المكان هنا مختلف تماماً عن فيللا نيكولاس.. أليس كذلك؟

غرفة الطعام كانت جذابة، لكن أفكارها كانت تنصبّ على غرفة نومها بأثاثها الضخم، وعوزها الواضح للراحة.. رفعت نظرها إلى جايسون.. حتى هو يبدو كئيباً متجهماً مقارنة مع الخدم المبتسمين دائماً في اليونان.

قال غافن:

- ليس هناك مجال للمقارنة.. فهذا القصر بني أساساً للدفاع، بينما فيللا نيكولاس بنيت للعيش بسعادة.

وفكرت سالي: كما ستبنى فيللتنا للسعادة أيضاً وأملت أن لا يطول الأمر قبل أن يتم الانتقال، ويستقرا هناك.

في اليوم التالي ذهبت لرؤية السيد اندرسلي.. وكانت تينا معه، وقد انتقلت لتسكن معه قبل زواجهما المقرر بعد شهر.. حيتها تينا باهتمام، وسألتها إن كانت قد تمتعت بوقتها في كوس.

- كانت رحلة رائعة.. أحببت كل دقيقة فيها.

- كنت أعرف هذا.. طلبت من هنري أن نذهب إلى هناك في شهر عسلنا، لكنه يقول إنه لا يقدر أن يتحمل المصاريف.. على أي حال، قد نقوم بهذا في السنة القادمة.

قالت سالي:

- ألا ترغبين في بيتي حين تتزوجان؟ قال غافن إنكما ستختلفان عليه.

أحست أنها أخطأت بالإشارة إلى زوجها باسمه الأول.. مع ذلك لم تكن قادرة على مناداته بالسيد هنتلي.. الجميع كان معتاداً على مناداتها

بسالي، لكن منذ زواجها كان من المحتم على الجميع مناداتها بالسيدة هنتلي. وأضافت:

- أريدكما أن تأخذا أيضاً السجاد والستائر.

سألت تينا غير مصدقة:

- كهدية؟

- أجل.. كهدية.. فلا أحتاجها الآن.

هزت تينا رأسها:

- هذا كرم كبير! سنحب المنزل لكن

قاطعها السيد اندرسلي

- وماذا عن ورودي..؟ استغرقني تربيتها سنوات لتلتف حول المنزل بهذا الشكل

ردت تينا بلطف:

- بإمكانك تربية غيرها حبي! فكر فقط بأن يكون لنا المنزل الجديد! يجب أن ننسى ورودك، ونقبل عرض السيدة هنتلي السخي!

تمنت سالي لو أنها تستطيع القول إنها وزوجها سيتركان القصر، لكن غافن لم يعطها الإذن بهذا، فبقيت صامتة.. إذا قبلت تينا وخطيبها بالمنزل فسيبقى لهما، فمن يشتري الأملاك مضطر لأن يستبقي المستأجرين حين يستولي على الأملاك

كان المفتاح مع سالي فأعطته إلى تينا.. لكنها وهنري أصرا على أن ترافقهما إلى المنزل، وقال لها هنري وهو يهز رأسه:

- يجب أن تتناولي معنا الشاي أولاً سالي.

سرعان ما حضرت تينا الشاي وجلسوا حول الطاولة يتبادلون الحديث ويشربون الشاي.. أخذت تينا تتحدث عن ماريا ابنة اندرسلي التي تزوجت منذ أسبوعين.. وتيم الذي كان سعيداً جداً، ويتحدث دائماً عن أبيه الجديد، والذي على ما يبدو، كان سعيداً بابنه «الجاهز» وأعاد هذا الحديث كل الذكريات إلى رأس سالي.. واعترافات ماريا، قبولها بواقع

أن زوجها لم يحن لها لو أرادته ماريا.. ثم تذكرت الأيام المثالية التي قضتها مع كولن. وظهر في عينيها الرماديتين ظل الأسى بالرغم من أنها لم تعد ترغب في استعادة مثل هذه الذكريات.

كانت تينا تقول، مقاطعة أفكار سالي:

- بالطبع. كان لماريا الزواج بداية رائعة، ولقد اشترى لهما زوجك المنزل وأعطاهما المال لتأثيثه

صمتت تينا فجأة حين شاهدت دهشة سالي

- ما الأمر عزيزتي؟

- لا شيء.

هذه الأفكار قادت إلى أفكار أخرى، لكنها تساءلت لماذا يعطي غافن كل هذا المال لها. على أي حال؟ المنزل ثمنه مرتفع، ومهما كان سخياً معها فمثل هذه الهدية بعيدة عن أي منطق، كما أنه لم يعطهما المنزل فقط بل المال الكافي لفرشه بالأثاث!

ثم، هناك أوجه محيرة أخرى للمسألة أدركت سالي هذا فجأة.

كيف جرى أن ساقش ماريا شؤونها الخاصة مع غافن؟ فلا بد أنها كانت تقابله وأخبرته عن صلتها بدان، وأنهما يفكران بالزواج. وبما أن غافن هو السيد المالك المتزمت، المبتعد المنعزل يستخدم وكيله في كل تعاملاته مع المستأجرين والفلاحين والعاملين عنده فليس من المعقول أن يجري أي حديث حميم بينه وبين ماريا لكن الوقائع تثبت عكس ذلك

استعدت - للخروج والتفرج على منزل سالي القديم. وأجبرت سالي نفسها - كرهاً على أشياء أخرى غير هذه التساؤلات ورافقتهما إلى المنزل. أحس نوع من الحنين وهي تضع المفتاح في قفل الباب. وتدفقت أشعة الشمس إلى الداخل حين فتحت الستائر ودخلت معها الذكريات. وبالرغم من حبها الجديد لزوجها، وجدت نفسها تفكر مرة أخرى بالأيام السعيدة التي أمضتها هنا مع كولن

كانت تينا مأثرة وسعيدة، فقالت:

- إنه جميل! يجب أن توافق على أخذه هنري.. بمكنك أن تأتي بشتلات الورد لتزرعها هنا، وستنمو حول الباب.. أوه سالي.. أظنك أمضيت فيه أوقاتاً سعيدة دافئة وحميمة!

هزت سالي رأسها:

- كان لدينا أثاث جميل.. اخترنا كل قطعة منه بعناية بالغة.

- أحببت السجاد والستائر.. إن ذوقك ممتاز.

فكرت سالي بالمنزل الذي سيبنيه لها غافن في كوس وأحست أنه سيكون أمامها فسحة كبيرة لخيالاتها.

- ساترك السجاد والستائر، فأرجو أن تقبلا بها.. هذا إذا كنتما ستأخذان المنزل طبعاً، لكن حتى لو لم تأخذاه، فلا زلت أود أن تأخذا السجاد والستائر فلا فائدة أن أتركها للغرباء.

كانت تينا تقف بالباب الموصل إلى المطبخ الجميل.

- لا.. أنت محقة تماماً.. تعال هنري، وانظر إلى هذا! لن أرغب في أن أخرج!

رد السيد اندرسلي بصوته الهادىء:

- جميل جداً.. وهناك منظر رائع من هذه النافذة.

كان المنظر يطل على القصر، ومن وراءه مرتفعات جبل «تيشفوتس» المشعة بالشمس.

نظرت تينا إلى السيد اندرسلي وقالت مقررة:

- أظن أننا سنقبل بالمنزل، فالكوخ حميم دافىء. ولكن يلزمه عمل كثير. أما هنا فلدينا تسهيلات حديثة كنا نتمناها

مع أن السيد اندرسلي تمتم شيئاً حول وروده، إلا أنه خضع، وبدا الاثنان يخططان كيف سيضمان فيه أثاثهما. وسمعت سالي تينا تقول

- سنجعل منه عشاً صغيراً نفخر به

عش صغير نفخر به.. بعد أن زمناً طويلاً قد مرّ منذ قال كولن شيئاً

مماثلاً.

استدارت سالي، تاركة الاثنين يخططان معاً وخرجت إلى الفناء، وعيناها تسعيان إلى القصر المتجهم والذي يبدو كمملاق تحت شمس حزيران الحادة.. من سيرغب به كمنزل له؟.. لكنها افترضت أن شخصاً ما قد يرغب في شرائه.. ولا شك أن وكيل الأملاك الذي استخدمه غافن كان متفائلاً حول عملية البيع.

خلال الأيام التالية، وجدت سالي نفسها تفكر كثيراً بالمعلومات التي وصلت إليها من تينا.. بدت وكأنها مرتبطة بأحداث صدمتها في الماضي.. أولاً لم تبد ماريا أية دهشة لسماع خبر نية اللورد بالزواج بسالي.. مع أن الجميع أصيب بالذهول للخبر.. بينما تلقته ماريا وكأنها كانت تتوقعه.

في مرحلة ما فكرت أن تسأل زوجها مباشرة عن علاقته بماريا، لكنها امتنعت، لعلمها أنه سيرفض أي نوع من التساؤل قد تطرحه. وهكذا في النهاية حاولت إبعاد المسألة المقلقة عن ذهنها.

مرّ أسبوع قبل أن تلتقي بماريا وزوجها الجديد في البلدة، ودهشت سالي لرؤية دان في منتصف النهار، لكن ماريا أوضحت لها أنه قد أخذ إجازة لبضعة أيام كي يغير ديكور غرفتين في منزلهما الجديد. وأكملت بسعادة:

ـ نحن مشغولان باختيار ورق الجدران.. وسيكون لتيم واحدة من الغرفتين، لذلك نفتش عن أوراق عليها رسومات لحيوانات وألعاب.. تعرفين النوع الذي أعنيه؟

ـ أجل.. أعرفه.. وهذا ما سيسعده.. كيف حاله؟ ذكرت تينا أنه سيذهب إلى مدرسة حضانة بعد سكنكم قرب البلدة.. هل تعجبه؟

ـ إنه يحبها، ولطالما سأل عنك سالي. إنه يشتاق إليك.. لكنه سعيد الآن.. وأنا كذلك.

ـ وأنا مسرورة لك كثيراً.

استمرتا تثرثران إلى أن قال دان نافذ الصبر:

ـ إذا كنت ستبقين في البلدة لفترة، دعينا نلتقي بك ونتناول الغداء معاً.

ابتسمت سالي:

ـ أجل.. سأحب هذا.. أين تذهبان عادة؟

ـ إلى مقهى الجسر فقط.. مكان لطيف، لكنه مزدحم قليلاً. نذهب إلى هناك في الثانية عشرة تماماً ونحصل على طاولة بسهولة.

ـ سألتقيكما عند الظهر إذاً.

أنهت سالي عملها في وقت قصير، وكان الوقت ظهراً تماماً حين دخلت المقهى، الذي كان قد بدأ بالازدحام، ووقفت جانباً لبضعة دقائق منتظرة من يأخذ منها معطفها، نظرت حولها، لكن الجوانب المرتفعة للمقاعد كانت تخفي الناس عن نظرها. وفي أثناء ذلك، سمعت أصواتاً وأدركت أن ماريا وزوجها كانا قريبين منها.. إذ سمعت ماريا تقول:

ـ... أجل تبدو سعيدة.. وأتمنى أن لا تكتشف ما فعله غافن ليجعلها تنسى كولن.

جفّ حلق سالي، واشتد توتر أعصابها.. عمّا تتكلم ماريا؟ سمعت رد دان:

ـ ما فعله أفادنا.. لا بد أنه كان مصمماً على الزواج منها ليعرض عليك المال والمنزل مقابل قول الحقيقة لها حول زوجها ولكن كيف عرف أن كولن هو والد تيموثي؟

ـ قلت له ذلك بنفسي.. يومها كنت متكدرة، وهو يعرض عليّ المال فأخبرته بالأمر.

صوت امرأة قاطع ما كانت تسمعه، وبشكل آلي استدارت ومعطفها في يدها. علقت معطفها، كانت اللحظات تمر كالدهر.. وقفت تحدق بماريا قبل أن تدرك أن دان يقف بدوره، ينتظرها لتأخذ المقعد الذي تركاه لها.

تمتمت:

ـ شكراً لك.

كان تفكيرها يعمل ببطء وهو يضع قطع الأحجية في مكانها، أراد غافن شيئاً وصمم على الحصول عليه مهما كلفه الأمر. هو إذن من حطم أحلامها وشتت ذكرياتها الحلوة، وجعل زواجها يبدو سخرية لها، وسعادتها مسروقة.. لقد أثبت صدق ما سمعته عنه بالقساوة، ولم يهتم أبداً بمشاعرها فهو لا يختلف عن أسلافه المتعطشين للدم. في هذه اللحظة انقلب حبها إلى كراهية هزت كل كيانها.. وسمعت ماريا تقول دون أن تفهم:

ـ ماذا ستتناولين سالي؟ السمك دائماً لذيذ هنا.

ـ أجل.. سآخذ السمك.

ـ أهناك شيء يزعجك؟

ـ لا.. لا شيء.

التقطت لائحة الطعام.. الكلمات لم تعن لها شيئاً فأعادتها إلى الطاولة مجدداً.. وفكرت: لو أن غافن لم يتآمر عليها بتلك الطريقة لكانت لا تزال تحتضن ذكرياتها الجميلة مع كولن.. ولم يخطر ببالها أن تفكيرها انحرف سامحاً للغضب أن يدمر السعادة التي بدأت تدخل حياتها نتيجة تصرفات زوجها في الفترة الأخيرة. كل ما استطاعت التفكير به هو أنه استغلها لغاياته، وأن لا شيء يردعه من تنفيذ رغباته.. ولقد استخدم ماله كوسيلة.. وماذا عن ماريا؟ شعرت بالإذلال لأن الفتاة كانت وسيلة لتنفيذ ما يريد السيد المتسلط.. يمكنها أن تجد له عذراً لو كان يحبها.. لكن، والأمور كما هي عليه، فهي لن تجد عذراً له على الإطلاق.

كيف أمضت فترة الغداء، لا تعي أبداً. لكنها أخيراً ودعت ماريا وزوجها خارج المقهى. وذهبت إلى موقف السيارات، وقادت سيارتها إلى المنزل. أفكارها مثقلة بالمعلومات التي وصلتها... هل تذكرها أمام غافن؟ قررت أن تتصارح معه، فمن المستحيل أن تبقي ما تعرفه لنفسها.

ومرت الأسابيع ببطيئة رتيبة خلال عملية طرح الأملاك للبيع ومن ثم شراءها... الوكيل ومساعديه كانوا يحضرون من وقت إلى آخر، ومعهم المشترين المرشحين، والكاتالوجات في أيديهم، يتجولون في القصر يرافقهم شخص من قبل الوكيل أو أحد الخدم.. أكثرهم قدم بداعي الفضول، وبدون نية للشراء، بل مجرد اغتنام الفرصة للتفرج على القصر، الذي يعتبر أحد أضخم القصور في المنطقة.

اعتزلت سالي زوجها منذ اليوم الذي واجهته فيه بما تعرف.. واتهمته باستغلالها للحصول على ما يريد.. وأخذت تمضي معظم وقتها في غرفة صغيرة فرشتها لنفسها من مفروشاتها الخاصة التي جاءت بها من بيتها الريفي، وعاد غافن كما كان، متجهماً، مخيفاً، والخشونة المعهودة مرسومة على وجهه، والتي كانت قد اختفت حين كانا في اليونان. لم يحاول إنكار دفعه للمال لتكشف ماريا ما تعرفه عن كولن. قال إنه مهما كانت نواياه في البداية، فهو مقتنع الآن أنها مبررة أمام واقع نسيانها لحزنها الماضي ولأنها وجدت نفسها قادرة على التمتع بما تعطيها الحياة.

لكن تفكير سالي بقي مشوشاً وشعرت كأنها تحاول إعادة التمسك بذكرياتها، فلم تصغ إلى ما قاله غافن.. بل قالت له بصراحة إن أي علاقة حميمة بينهما قد انتهت، وهددته بتركه لو حاول تحدي رغبتها، فهي تحمل طفله، وستبقى معه إلى أن يولد.. بعدها لا تدري، فقد تتركه وتأخذ طفلها معها.. لم يجب غافن بشيء فظنته خائفاً من أن تهجره.

لكن، كانت تمر عليها أوقات تشعر خلالها بالخوف منه وتعلم أنه في يوم من الأيام سيريها من هو السيد.

لم يعد يبحث أمر الفيللا الجديدة معها، لكنه في أحد الأيام ترك صوراً ملقاة على طاولة الردهة، ونظرت سالي إليها.. الفيللا أصبحت جاهزة تقريباً، وبدت كتحفة. الحدائق مُهدت مع تقدم البناء، وبدت جميلة رائعة التخطيط.. وعرفت أن غافن على اتصال دائم بجده الذي يشرف على البناء بنفسه، وعلى تنظيم الأرض حولها، وشعرت بالأسف

الشديد لأنها لم تستشر بأية طريقة ما. . فغافن كان يبني الفيللا لنفسه، وتساءلت بحزن ما إذا كانت ستذهب إلى اليونان معه حين يأتي وقت سفره.

أخيراً جاء من يشتري القصر، وذهبت سالي إلى البلدة، تتجول وحيدة، تشعر بالاكتئاب أكثر فأكثر بمرور الساعات. . وعند عودتها لاقاها غافن في القاعة الكبرى. . ليعلمها أن القصر بيع لمؤسسة فندقية، وبيع الأثاث سيتم خلال خمسة عشر يوماً.

ـ سيصبح فندقاً إذن؟

ـ أجل. أتوقع هذا.

ـ ألا تمانع؟

وجهه كان كقناع لا مشاعر فيه وهو يرد:

ـ أبداً.

بدا لها كاذباً من نبرة صوته، لكن وجهه لا ينم عن شيء، فمه ثابت وفكه مشدود. وقالت:

ـ أظنه كبير جداً على أي شخص ليحافظ عليه بمفرده كسكن خاص له.

صوته لدغها ببرودته:

ـ سننتقل بعد ثلاثة أسابيع. ماذا تنوين أن تفعلي بأثاثك؟

هزت رأسها وفمها يرتجف، ثم ابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ لست أدري. . حقاً لست أدري!

عيناه السوداوان كانتا باردتين كصوته:

ـ أتظنين أنك تودين الاحتفاظ به؟

ـ لا. أنا مضطرة للتخلي عنه.

ـ وذكرياتك معه؟

السخرية كانت واضحة في كلامه، لكن وراءها كان هناك لمحة مرارة لا شك فيها.

ـ أنت ظالم.

ـ هذه إحدى خصالي. وأذكر أنك قلت بأنني عاملتك بقسوة حين عقدت تلك الصفقة مع ماريا.

أرادت الابتعاد عن أي حديث شخصي:

ـ ذلك الأثاث، ربما أستطيع بيعه، مع أثاثك.

ـ لم نضع لائحة به. . والوقت متأخر لهذا.

أحست أنها تكاد تبكي، لكن ليس لبكائها علاقة بالأثاث. . وتساءلت عما إذا كان اكتئابها الأخير هو نتيجة لوضعها الصحي.

ـ ما. . ماذا. . أستطيع أن أفعل به إذن؟

هز كتفيه دون اكتراث.

ـ خذيه معك. . وافرشي به غرفة، كما فعلت هنا. عندها ستتمكنين من الجلوس والاكتئاب فيها تفكرين بالماضي. .

صاحت بشراسة:

ـ لا تقل هذا! أيجب أن تعذبني؟

ـ أنت تعذبين نفسك.

دون أن يترك لها مجال الرد، استدار على عقبيه وابتعد، ووقفت طويلاً صامتة، ويداها مضمومتان معاً، أمام وجهها الأبيض، عيناها الجميلتان مملوءتان بالدموع.

أخيراً تحركت، وخرجت إلى الفناء الخارجي، ثم تابعت السير، عبر الأراضي الشاسعة. . تجول على غير هدى كما حدث لها ليلة وجدها غافن مبللة حتى العظم، وجاء بها إلى القصر، وخلع عنها ثيابها، قبل أن يضعها في الفراش. . كانت تجهل يومها أنها ستقع في حبه. لكنها فعلت، ومهما حاولت تغيير هذا الحب إلى كراهية فلن تنجح. ستحبه إلى الأبد، لكنها لن تسامحه على ما فعله بها. ولو أن هذا غير منطقي، وسيجلب لها التعاسة. . وتساءلت كيف يمكن لها أن تعيش وهماً في كوس، ونيكولاس ليس بعيداً عنهما، واضطرارها في كل لحظة أن تتظاهر

أمامه بالرضى والحب.

انطلقت تنهيدة من فمها. فالتفكير بمستقبلها أمر مريك، وكل ما ترغب به هو الوصول إلى حالة ذهنية لا تعود قادرة معها على التفكير أبداً.

مضت ساعات وهي تسير على غير هدى حين أدركت أنها تائهة. لقد تجولت بين التلال، تسير لأميال وأميال دون التفكير بالنظر إلى علامات الطريق، تلتقي أحياناً بمنحدرات صخرية مخيفة، أو غابات غامضة مظلمة، حتى صيحات الطيور كانت ترسل في أوصالها الرعب.

أين أصبحت الطريق؟ لكن تفكيرها رفض الاستجابة. فكرت بغافن، وشعرت بالأسى على نفسها فلن يزعج نفسه بالبحث عنها. بدأت الشمس بالانحدار، مع ذلك كانت باردة الأعصاب تحس بضبابية أنها ستعود إلى القصر في نهاية المطاف. ولا يهمها إطلاقاً متى يكون هذا.

تابعت السير، حتى أنها توقفت تبدي الإعجاب بغدير مترقرق تحولت مياهه إلى ألسنة من نار تحت وهج الشمس المائلة للغروب. السماء كلها كانت تشتعل. بالألوان النارية التي كانت تنتشر فوق التلال وتبلغ الوديان فتحيط جوانبها بالبرونز الناري

كان من الواضح أنها ستصاب بالإرهاق، فجلست أخيراً. تتساءل إلى متى سيستمر هذا الإحساس العابث فيها. بكل تأكيد ستعود إلى وعيها قبل وقت طويل، وتبدأ جدياً بمحاولة إيجاد طريق العودة فلقد اقترب حلول الظلام. لكن الوقت هو حزيران، والنهار طويل. تثاءبت بكسل وأسندت ظهرها إلى شجرة. كل شيء حولها هادىء، ونسيم خفيف يداعب وجهها، نسيم معطر يأتي من غابة الصنوبر البعيدة إلى الغرب.

كان الظلام قد حل منذ زمن حين استيقظت. وفي الحال اجتاحها إحساسٌ حقيقي بالخطر امتزج مع الخوف من بقائها وحيدة طوال الليل، بعيدة عن بيتها ولا تدري كم سارت من الأميال، لكن يمكن أن تكون قد سارت في دوائر. على أية حال تعرف أنها على مسافة بعيدة من القصر، وتعرف كذلك أنه لا بد من حصول معجزة لتصل إلى طريق العودة، الآن

وقد حلّ الظلام. هل سينظم غافن فرقة للتفتيش عنها؟ أهلست يقلبها ينخلع من مكانه حين خطر ببالها أنه نظراً لتهديداتها، فقد يستنتج أنها رحلت عنه، وبدلاً من التفتيش عنها سينتظر أن تتصل به. عندما تجد الرغبة في ذلك.

كانت تتلمس طريقها عبر شجيرات صغيرة كثيفة. ثم اصطدمت قدمها بجذور شجرة فوقعت على وجهها تصرخ ألماً لتمزق ذراعيها وساقيها بالأشواك الحادة. التقطت أنفاسها ووقفت، ثم تابعت طريقها مرة أخرى. أدركت أن الضباب الرطب أخذ يتصاعد من أحد الوديان البعيدة. فجأة شعرت أن الصمت يضيف إلى وعيها توتراً ملحوظاً، وكأنه شيء يداني خارج عن فهم البشر.

تابعت طريقها، آملة أن ترى بصيص نور يقودها إلى مكان آهل. لكنها فجأة وجدت نفسها فوق أرض وعرة، وبدأت قدماها تنزلقان على صخور متحركة. حتى قبل أن تتمسك بغصن شجرة، أخذت تنزلق...

رائحة الأدوية في المستشفى دخلت أنفها وهي تفتح عينيها. الأصوات كانت خافتة لكن حقيقية. صوت رجل، من المفترض أن يكون خشناً حاداً قوياً. أما الآن الصوت ذاته فيه قلق عميق:

ـ أتستعيد وعيها أيتها الممرضة؟

ـ أجل. أخيراً.

ـ معجزة أنها لم تصب إصابات خطيرة.

ـ أجل.. بالفعل.

لم تسمع سالي المزيد في المرة التالية التي استعادت وعيها، التقطت أذناها الصوت الخشن نفسه، لكنه بدا هذه المرة آتياً من البعيد، ولم تستطع تمييز الكلمات

مع ذلك، وبالتدريج، بدأت عيناها تركزان، وأذناها تلتقطان الأصوات بسهولة أكثر من ذي قبل

حدقت إلى وجه غافن، ملاحظة الخطوط الرمادية حول فمه،

والتوتر، والنبض المتسارع لشريان على عنقه الملوّح بالشمس
قالت وألم الخسارة في صوتها:
ـ الطفل.. لقد انزلقت مسافة بعيدة.
ـ أجل وقعت لمسافة بعيدة جداً.. وطفلنا خسرناه عزيزتي
ـ عزيزتي.. مع هذا الحنان.. لا يمكنها أن تخطىء على أية حال، تعابير وجه زوجها قالت لها كل ما تريد أن تعرفه. امتلأت عيناها بالدموع وهي تفكر بما فقدت:
ـ ما كان يجب أن أبتعد هكذا إنه غباء مني.. إنه نوع من العقاب لي.. كيف وجدتني؟
كانت نفسها مليئة بالمرارة.. ونظرت إليه، فمها يرتجف، فمد يده يلمسه بحنان، ويحزم معاً:
ـ أرسلت فرقاً للتفتيش.
دخلت الممرضة وطلبت منه الخروج، ولم ترَه سالي لفترة طويلة لكنه كان ينتظر في الخارج. أخيراً جاء يجلس قربها على السرير. وقالت:
ـ أصبت فقط ببعض الكدمات.. وكنت محظوظة في الواقع.
ـ محظوظة بشكل لا يصدق
وصمت ثانية وكأنه يصارع مشاعره، ثم قال
ـ سالي.. حبيبتي.. لو حدث لك شيء خطير ما كانت حياتي تستحق العيش
كم أن تصرفاته الآن تختلف عما كانت يوم تقدم بطلب يدها! رفعت نظرها إليه مشرقة، كل حبها مكشوف في عينيها
ـ أنت تحبني؟
كان تقريراً لأمر واقع أكثر منه سؤالاً. فقد كانت تتوق لسماع الرد، فالتوى فمه ليخفي ابتسامة ظافرة.. بدا متعباً منهكاً، لكن الخشونة التي كانت لا تفارق وجهه غابت عنه الآن وإلى الأبد. ورد ببساطة:
ـ أجل.. أحبك.

ارتجف فمها، حاولت الجلوس كي تقترب منه أكثر، لكن يده أعادتها فوق الوسادة. قالت وكأنها لم تستطع إيجاد الكلمات المناسبة:
ـ قلت إنك لا تستطيع أبداً أن تحب.. أتذكر هذا؟
ـ أذكر حبيبتي.. أنا وأنت قلنا أشياء ندم عليها الآن، ونعرف أنها غباء مطبق.
ما هذا الاعتراف من اللورد المتكبر المتعجرف صاحب الأملاك، النبيل سيد «وارندايك»!
ـ غافن..
ـ نعم، يا أعز الناس!
ـ أنا آسفة...
صمتت بحزن وأكملت:
ـ ما فعلته غير ملائم، أليس كذلك؟ أحببتك، ومع ذلك أردت كراهيتك لعقدك صفقة مع ماريا.. أترى، عزيزي، أدركت في كوس أنني لا أريد استعادة الذكريات، وأن أمامي الكثير لأعيش لأجله بعد أن وقعت في حبك.
ـ وقعت في حبي.. في كوس.. لقد شعرت بذلك بالطبع، لكن لم أكن واثقاً.. وأنا كذلك أحببتك في كوس، وكان يجب عليّ اغتنام الفرص لأقول لك.. لكنني فكرت بتلك الذكريات. ولم أكن متأكداً أنك تخلصت منها.. دعينا ننسى كل شيء الآن، على أية حال، يا حبي. هناك أشياء أكثر جمالاً لتتذكرها.
ـ كرحلتنا إلى كوس، مثلاً؟
ـ كحبنا في كوس. أتعرفين سالي، أننا حين كنا في اسكليبيون أردت.. أن آخذك بين ذراعي وأقول لك «أحبك».
تنهدت، متمتمة بأسف:
ـ أحسست بذات الشعور غافن، وكم تمنيت بائسة أن تحس بما أشعر.

- ليتك فعلت.

- كنت خائفة من صدك لي.

كانت عيناء رقيقتان وهو يقول:

- ما كنت سأصدك حبيبتي.. لكن كانت هناك أوقات كنت سأفعل فيها هذا

قالت بسعادة:

- لكنك تغيرت

- أكثر مما كنت أعتقد بنفسي. لا أستطيع التفكير الآن أنني أفكر بالزواج بدون حب

لم تقل سالي شيئاً. كانت تحس بالتعب، وكانت كدمة كبيرة على ساقها تسبب لها الألم. سرعان ما لاحظ غافن هذا، واستدعى الممرضة، متجاهلاً احتجاجاتها، وهذه المرة ذهب إلى القصر حيث عمل حتى وقت متأخر من الليل في مكتبته، فقد كان تواقاً للانتقال إلى كوخ يقدر فوق زوجته نفسها.

بالرغم من الحادثة، تمكنا من الانتقال في الموعد الذي حدده غافن. وبينهما الأثاث والأشياء الأخرى بعد أسبوع.

وقفت سالي في الفناء تنظر عالياً إلى أبراج القصر:

- من المؤسف أن يتحول إلى فندق! بعد كل هذا المجد والتاريخ ومن عاش فيه من عظماء، وماتوا بين جدرانه.

تقدم ليقف إلى جانبها، قريباً من السيارة المليئة بالأشياء التي سيأخذونها معهما

- العديد من الناس سيتمتعون الآن فيه من الأفضل له أن يكون فندقاً من أن يترك ليتداعى ويهترىء. كما حصل للعديد من القصور القديمة.

نظرت إلى وجهه، والذي بدا أكثر وسامة وقالت:

- لا بد أنك نادم

- أبداً حبيبي أتذكرين أنني قلت إن ليس من المهم في البداية أن لا

تحبي القصر كبيت لك؟ ألم يخطر ببالك أن كلمة «في البداية» كان لها مغزى خاص؟

- لا.. وبلى.. فأنا لم أفهم ما عنيت.

- عنيت أن الأمر المهم هو أنت.. فأنا أهتم بك، وسعادتك.. والقصر هنا غير مناسب لزوجتي الحلوة.. لذلك سننتقل

ربما كان غافن يفكر كذلك بأن من الأفضل إبعادها عن كل ما قد يذكرها بكولن.. لكن لا حاجة له للقلق.. إنه زوجها.. الذي تحبه وتهتم به أكثر من كل ما في الوجود.. أجل أكثر بكثير من كولن فهو، لم يكن حقاً لها، ليس لها لوحدها.. كما هو غافن وسيبقى.

أمسك يدها يقودها إلى السيارة.

- تعالي حبي.. لقد وصلنا النهاية في هذا الطريق وهذا أول منعطف لنا.. وسيكون أمامنا منعطفات أخرى، وستتعامل معها حين نصل.. معاً، بحب وبدون أسف على ما يمكن أن نترك وراءنا

ارتفعت عيناء إلى أبراج القصر الحادة تناطح السماء ثم أدار نظرته، ولم يعد ينظر إلى الوراء ثانية.. ولم تتحرك كما توقع منها، بل وقفت تنتظر أن يعانقها.. بضحكة صغيرة، قرأ رغبتها في عينيها فشدها بين ذراعيه، ولفترة بقيا هكذا، ملتصقين ببعضهما ثم أبعدها عنه، ليتظر إلى عينيها بحنان..

ابتسمت، ونظرت نظرة أخيرة إلى القصر، ودخلت السيارة.. دخل غافن بدوره وبعد لحظات كانا يمران عبر الممر الداخلي الذي تحيط به الأشجار وأصبح قصر «وارندابك» وراءهما.. منجهماً كئيباً وكالحاً

* * *